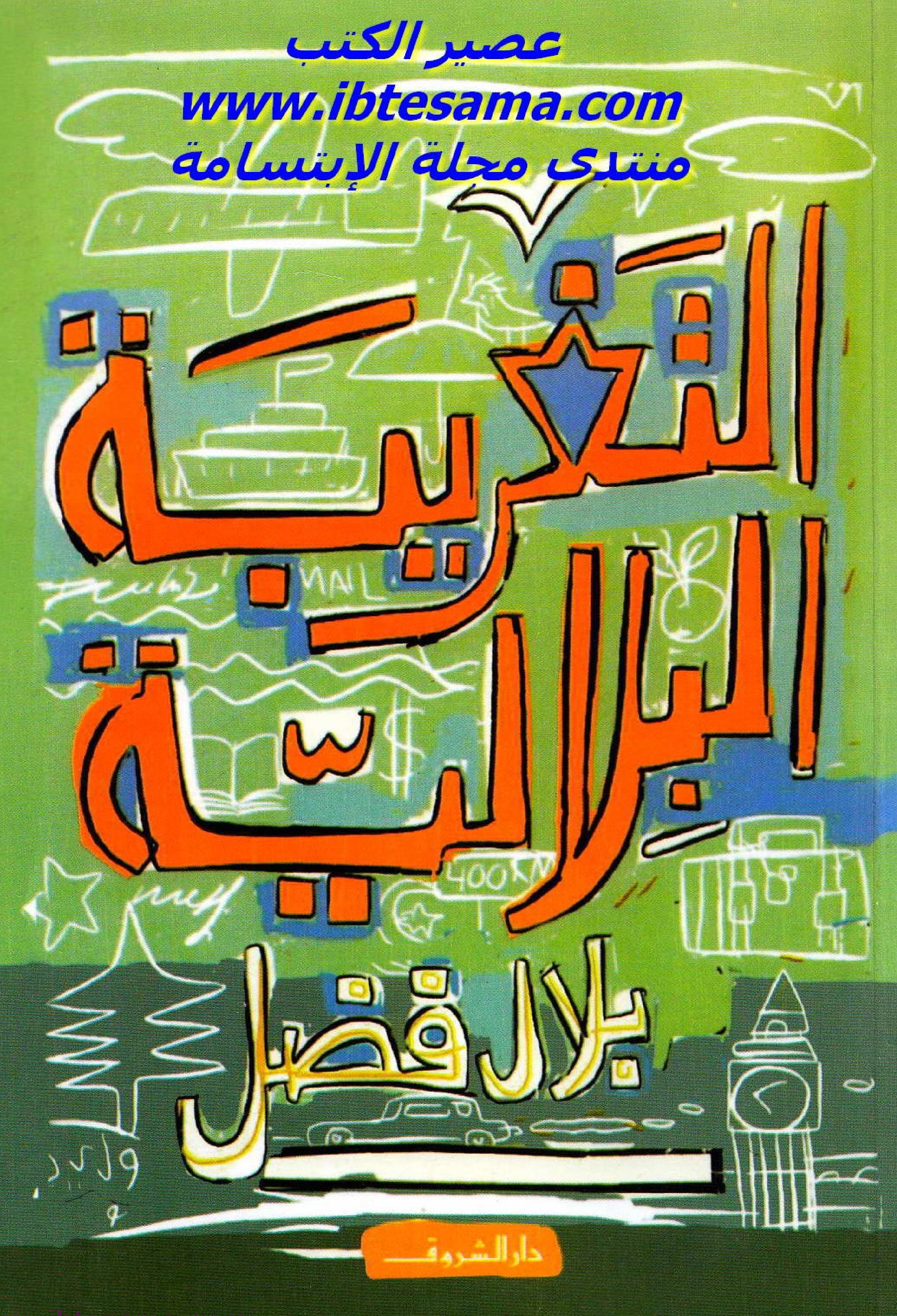

التغريبة البلالية
بلال فضل
دار الشروق


التجربة
البرازيلية

التغريبة البلالية

بعض ما جرى عندما تركت الكنبة ومشيت في مناكبها

بلال فضل

تصميم الغلاف: وليد طاهر

الطبعة الأولى ٢٠١٣

تصنيف الكتاب: أدب رحلات

© دار الشروق

٨ شارع سيبويه المصري
مدينة نصر - القاهرة - مصر
تليفون: ٢٤٠٢٣٣٩٩
www.shorouk.com

رقم الإيداع ٢٣٢٠١/ ٢٠١٢
ISBN 978-977-09-3198-1





بعض ما جري عندما تركت الكنبة
ومشيت في مناكبها

دار الشروق

المحتويات

أجدع من أي مقدمة

«بعد نهاية كل رحلة من الرحلات، وبعد أول عودة لك، ستجد تنوير القلب أكبر من تنوير العقل، تجد نفسك مضاعفا، لا بسبب المعرفة، فربما تعود وأنت أقل معرفة مما مضى، ولكنك تشعر بأنك تغيرت، فالرحلة الحق هي التي تشعرك بالتغير، تشعرك بدماء الآخرين وهي تجري في عروقك... تجد نفسك في الحياة ذاتها، أو فيما يجب أن تكونه... وهكذا تتعلم مع كل رحلة أن العودة هي غير الوصول، والشعور بالخيبة والمرارة لا يتوافق مع الفرح الجميل بالفن، وبالفضاء الذي يمنحنا لغة جديدة وأسلوبا جديدا، ثم يولد نصوصا تتعلق بالكاتب وبالحياة... ربما تنتهي الرحلة إلى فراغ وربما إلى نص، لكن الفراغ بحد ذاته هو نص وربما أبلغ من كل نص يكتب، لا لأن المكان عصي على التصوير، أو هو أعظم من كل ما نمتلك من أدوات، وهو أثرى وأخصب من اللغة مطلقا، بل أنا أعتقد أن اللغة أعظم من المكان، وبها ينخلق المكان أصلا،

ولكـن الفـراغ المطلق يحدث حينما ننطلق نحـو المكان ونتحد به، وبذلـك يصبح المـكان أعظم من النـص، فالنص الـذي نكتبه ليـس بديلا عن المكان مطلقا، مثلما لا يمكن لنص الرحلة أن يكون بديلا عن الرحلة».

مقتطفات من خاتمة طويلة لكتاب الروائي العراقي علي بدر

عن بعض رحلاته (خرائط منتصف الليل)

الجنة كان اسمها بيروت!

(١)

نجوت من الموت في لبنان .. لكنني عندما عدت إلى القاهرة كان لبنان يموت.

في هذه اللحظات وأنت تجلس آمنا في سربك معافى في بدنك عندك قوت يومك، هناك لبناني يُستشهد أو يُجرح أو يحاول الهرب بأسرته عبر طرق جبلية وعرة تسلكها السيارات لتختبئ من عيون الطيارين الإسرائيليين، أو يبحث عن بنزين لسيارته التي يأمل أن يستخدمها في الهرب أو عن خبز يؤمن به أولاده غوائل أيام لا يعلم نهايتها إلا الله، أو في أحسن الأحوال يختبئ هو وأطفاله في جراج أو بدروم يحاول أن يرفع صوته ليصبح صوته أعلى من صوت الطائرات، لعل أطفاله يتمكنون من سماعه وهو يحاول أن يشرح لهم لماذا تعرض أصدقاؤهم وجيرانهم للقتل بالأمس وهم نيام.

آه.. يا الله يا ولي الصابرين.. من أين يمكن أن يبدأ الإنسان وصف مجزرة؟

كنت قادما من سوريا، وصلت إلى بيروت في الثالثة من فجر ذلك اليوم الذي نفّذ فيه مقاتلو حزب الله عملية (الوعد الصادق) التي تمكنوا فيها من أسر جنديين إسرائيليين، لكنني عندما وصلت لم أكن أعلم أن تلك العملية قد حدثت بعد. كان مطار الشهيد رفيق الحريري يشرح القلب العليل، قطعة حضارية مشرقة وتعاملا راقيا مع الواصلين إلى بيروت مهما كانت ظروفها الأمنية. لم أكن أعلم أنني سأكون واجدا من القلائل الذين شاهدوا مطار رفيق الحريري لآخر مرة، كانت بيروت نائمة آمنة لا تعرف ما ينتظرها في اليوم التالي، وأنا أسير في شوارعها ـ التي كانت جميلة ـ كنت أشعر ببعض القلق عليّ وعلى زوجتي، خصوصا بعد ما سمعته من تحذيرات عن حالة الانفلات الأمني والتي أدت لوقوع حوادث مؤسفة كالتي تعرض لها الصديق المنتج محمود بركة والممثلة زينة قبل أشهر عندما تعرضا لمحاولة خطف من قبل عصابات منظمة، قمت بتحويل الموبايل إلى «السايلنت»، وأخذت أتصنع الاتصال بصديقي الحاج جعفر الطفيلي المقيم في النبطية، لكي أُشعر سائق التاكسي أن لي عزوة وناسا في بيروت (لم أكن أعرف أن مكالمتي التالية مع الحاج جعفر بعد ساعات ستكون اطمئنانا على أسرته واعتذارا عن عدم تمكني من القيام بزيارة الجنوب اللبناني التي كان لابد لي منها كلما وصلت إلى لبنان، ولم أكن أعرف أيضا أن المكالمات التالية سيتلقاها الحاج جعفر بصعوبة بالغة لأنه مختبئ هو وزوجته الحاجة فاطمة وأولادهما وأقاربهما ينتظرون الموت في أي لحظة).

نَمُرُّ على الضاحية الجنوبية المجاورة للمطار، فأشير لزوجتي إلى المدخل المؤدي إلى حارة حريك معقل قيادة حزب الله حيث تسكن الحاجة أم جلال اللبنانية التي زوجت ابنتها مصريا من قراء صحيفة الدستور أحبها على الإنترنت. تذكرني زوجتي بزيارتها في رمضان الماضي لمقر حزب الله حيث أجرت حوارا صحفيا مع الشيخ نعيم قاسم نائب الأمين العام لحزب الله، ونتذكر الأمسية الرمضانية الجميلة التي قضيناها في ضيافة أم جلال في بيتها الجميل، نفكر في هدية مناسبة نهديها لأم جلال عند زيارتنا لها، وتتأسف زوجتي لأن الوقت الذي سنقضيه في لبنان ضيق جدا ولن يكفي لطلب موعد صحفي مع أحد قيادات حزب الله، لم نكن نعلم أنه بعد يومين لن يكون هناك أصلا مقر لحزب الله الكائن في حارة حريك التي سوتها طائرات إسرائيل بالأرض.

ونحن نتقدم في طريقنا إلى شارع الحمراء في رأس بيروت حيث يقع فندقنا بدأت أسخر بداخلي من التهويلات والمبالغات التي سمعناها عن تردي الأوضاع الأمنية في بيروت، طيلة الطريق لم نصادف شيئا يلفت الأنظار، بيروت تبدو في أجمل حالاتها تعدنا وتمنينا بأيام جميلة، القلق الوحيد الذي كنت أشعر به هو قلقي من عدم تمكني من الحصول على تذاكر ولو في السوق السوداء لحضور مسرحية السيدة فيروز (صح النوم) التي ستعرض بعد يومين في بعلبك، أضع أملي بعد الله على صديقتي الصحفية بالسفير ضحى شمس الأقرب إلى السيدة فيروز وعملها الأبدع زياد رحباني، لم أكن أعرف وقتها أن بعلبك ستكون هدفا لطلعات جوية وحشية

تقتل المدنيين وتروع الآمنين فضلا عن إجهاضها حلم الآلاف برؤية السيدة فيروز تشدو على المسرح مطالبة الوالي بأن يستيقظ من نومه لينظر في طلبات شعبه الذي هده الفقر وأضناه الجوع.

كنت قادما من دمشق عازما على ألا أعود إليها ثانية وممنيا النفس بأن أكتب في اليوم التالي مقالا ناريا عن سوريا التي أحبها والتي لم أجدها كما عهدتها، سوريا التي سلبوها من شعبها وكتبوها باسم الأسد وولده. فور وصولنا إلى الفندق نمت لكي أصحو في الصباح وأبدأ في التجهيز لكتابة صفحة قلمين التي كنت أنشرها في صحيفة الدستور كل أسبوع، صحوت في الحادية عشرة صباحا قلقا لكي تداهمني أخبار عملية (الوعد الصادق) على جميع شاشات التلفاز. بالطبع فرحت من كل قلبي فور سماع الأنباء، لكن ربك والحق بعدها قلقت، لا أدري لماذا شعرت أن هذا أمر له ما بعده، قناة المنار تقول إن اللبنانيين نزلوا إلى الشوارع لكي يعلنوا ابتهاجهم بالعملية ويوزعوا الحلوى على بعضهم. عندما نزلت إلى الشارع فورا وتجولت في أغلب الشوارع المحيطة بالفندق الكائن في شارع الحمراء، أدركت أن الصور التي أذاعتها المنار للابتهاج الشعبي كانت بالتأكيد في الضاحية الجنوبية وربما في المخيمات الفلسطينية، لكن هنا في رأس بيروت لا أحد مبتهج ولا حلوى توزع ولم يرفع أحد أعلام حزب الله أو صور السيد حسن نصر الله، هنا أهم منطقة في بيروت تحوي جميع الطوائف، بها أهم الوزارات والفنادق والمحال والمؤسسات ودور النشر والسينما والأسواق التجارية، طبيعي أن يكون الناس هنا قلقين

على مصالحهم، فمن شأن العملية أن تحدث قلقا لدى السياح القادمين إلى لبنان والذين يعتمد اقتصاده عليهم بشكل شبه كامل، السخط يبدو جليا على ما فعله حزب الله، لم أعلق قط، اكتفيت بأن أستمع، أغلب من تحدثت إليهم يستنكرون انفراد حزب الله باتخاذ خيار كهذا في نفس الوقت الذي يدور الحوار بين مختلف الأطراف اللبنانية حول الواقع اللبناني المتأزم والقابل للانفجار في أي لحظة، واقع كاد يفجره برنامج كوميدي سياسي قام بتقليد حسن نصر الله أو حتى الاحتجاج على رسم كاريكاتير دانماركي مسيء للرسول عليه الصلاة والسلام، بل وحتى مباريات كأس العالم التي شهدت اشتباكات بين مشجعي الفرق المختلفة.

«كيف بتكون معي المسا بنحكي عن شو بدنا نعمل، وتطلع من عندي تروح تجرني لحرب ما حدا بيعرف شو بيصير فيها»، هكذا قال المتردد على مكتبة المعري والذي يبدو مثقفا عتيدا من نوعية الكتب التي يحملها على الأقل، رد عليه صاحب المكتبة بهدوء واثق: «ولك يا زلمه.. ها الجنديين اللي خدوهون واللي انقتلوا يساووا الأمة العربية كلياتها». منطقان متعارضان تجد نفسك للحظة تؤيد كلا منهما، لا يبدو الوقت مناسبا للغة حماسية مع أناس خائفين على بلادهم كهذا، «حط نفسك مكانهم»، هكذا قلت لنفسي وأنا أسأل الله للبنان ولي ولزوجتي.

ماهي إلا لحظات وجاء الرد الإسرائيلي قويا عنيفا على الجنوب اللبناني بضرب الجسور ما بين صيدا والجنوب؛ بزعم الخوف من

تهريب الجنديين الإسرائيليين عبرها، هذا ماكان يتوقعه الجميع، وأنا صاعد إلى غرفتي تقول لي موظفة الفندق إن تذاكر طيراني للعودة إلى القاهرة بعد خمسة أيام قد تم تأكيدها وتؤكد عليَّ أن أكون في المطار قبل موعد الرحلة بساعتين، وأن أعمل في طريقي حساب «العجقة» ـ التعبير اللبناني الألذ عن الزحمة. أتصل لأطمئن على الحاج جعفر، كان في متجره في النبطية، سارع لنقل زوجته وأولاده إلى منزل أكثر أمنا به مخبأ في أسفل قريتهم الواقعة على بعد نصف ساعة من معتقل الخيام المحرر. أعتذر له عن عدم تمكني من المجيء إليه، أقول له: ستنزاح الغمة قريبا، يقول لي: «ماباظن»، أقول له: كلها يومان وأجيء إليك لتأخذني من جديد إلى بوابة فاطمة لنرمي الحجارة على حرس الحدود الإسرائيليين كما فعلنا من قبل، وأعدك أنني سأحاول التماسك هذه المرة في معتقل الخيام على عكس ما كنت عليه من تصدع عاطفي في المرة الماضية. كان ذلك عندما اصطحبنا الحاج جعفر لزيارة المعتقل المحرر في أكتوبر الماضي، وبمجرد دخولنا جرت ابنته الصغيرة لتقف على مدفع إسرائيلي غنمته المقاومة ورفعت علامة النصر بينما كتب خلفها بخط جميل «وإسرائيل إلى زوال». بكينا من الفرحة، ثم بكينا من الأسى ونحن نجول في زنازين المعتقل الضيقة المعتمة ونقرأ العبارات التي كتبها الأسرى على الحوائط حنينا إلى الأهل والحرية ولبنان وفلسطين، تذكرنا المعتقلات العربية التي لن يتحرر من فيها ولو بشق الأنفس، زرنا قلعة الشقيف المحررة المهيبة، وبكينا على فلسطين ونحن نشاهد المستوطنات التي تبدو خلف

السلك الشائك قطعة من أوربا، جلسنا ساعات في انتظار دورية حدود لكي نقذفها بالحجارة، الآن وأنا أكلم الحاج جعفر أتذكر أن كل ما مررنا عليه في زيارتنا الأخيرة صار مناطق للموت المجاني.

من العبث النزول إلى الشارع مجددا للاحتفال ولمشاركة الذين تقول المنار إنهم نزلوا إلى الشوارع بالآلاف، فالحكاية تتطلب مشوارا بعيدا إلى الضاحية الجنوبية. أتصل بأم جلال لأحييها، أجد تلفونها مشغولا لفترات طويلة، فأقرر تأجيل المكالمة إلى الليل. مع الوقت بدأت الصورة تتضح، الجنوب اللبناني الآن يتعرض لحملة دمار شامل، فجأة ودون أن يفهم أحد شيئا أصبح لبنان كله ساحة حرب. الآن فقط تأكد أن حزب الله قد ارتكب خطأ إستراتيجيا عندما توقع أن الرد الإسرائيلي سيكون مرتبكا بسبب انشغاله في جبهة غزة، وأنه لن يجرؤ على اتخاذ رد فعل عنيف كما جرت العادة منذ اندحر من الجنوب، لم يكن أحد يتصور أن رئيس الوزراء الإسرائيلي إيهود أولمرت المهزوز الذي لا يمتلك سجلا حافلا بالدماء كسجل شارون، سيعتبر أن هذه فرصته لكي يقدم قربانا معجونا بدماء اللبنانيين لناخبي إسرائيل. بالفعل أخطأ حسن نصر الله عندما راهن على أن الأمة العربية ستحمل أرواحها على أكفها وتخرج لتسانده لأنه العربي الوحيد الذي قرر أن يساند أهل غزة ويخفف الضغط عليهم ولو قليلا. دون شك أخطأ حسن نصر الله التوقيت؛ فالأمة العربية لم تهدأ بعد من غمرة انفعالها بنهائيات كأس العالم التي جرت منذ أيام وحضرتها في قرية سورية صغيرة تقع على الحدود التركية، كان ينبغي أن ينتظر حتى نتأكد ما الذي

قاله ماتيارزي لزين الدين زيدان فأفقده صوابه وجعله يخاصم روحه الرياضية إلى الأبد، كان لابد أولا أن نحسم نقاشنا هل أسلم تيري هنري أم لا، وأن نتأكد أنه لو كان قد أسلم وصدق إيمانه لما انهزمت فرنسا. للأسف أخطأ حسن نصر الله عندما جر الشعب اللبناني كله إلى مجزرة مجانية يتفرج عليها العرب تماما كما يتفرج عليها غيرهم. هل كان حسن نصر الله أو غيره يتوقع أن يأتي في اليوم التالي رد الفعل السعودي الذي اختار ألا يدين استهداف المدنيين بقدر اختياره إدانة المغامرين في حزب الله، كأن الجسور والبيوت التي هدمت والأرواح التي أزهقت لم تستوقف ملك السعودية ومن بعده ملك الأردن وملك مصر؟ أزعم أنني لم أشاهد خيبة الأمل في وجوه اللبنانيين كما شاهدتها بسبب تلك المواقف العربية المخزية، «هيك يا أخي عم يعطوا إسرائيل ضوء أخضر تدبحنا دبح»، هكذا قال عامل المطعم وهو يقوم بالاتصال كل خمس دقائق على أهله في الضاحية الجنوبية، شاكيا من أن ميزانيته هذا الشهر ستتأثر بسبب هذه المكالمات.

نحاول أن نقنع أنفسنا أننا في إجازة، وأنه لابد أن نبتعد عن جو التوتر العصبي الذي نشعر به ونحن جالسون في الأوتيل، لا بد أن نستمتع في حدود المتاح حتى يحين موعد سفرنا إلى مصر، الذهاب إلى حريصا أو جعيتا في الجبل كما كنا نخطط لم يعد آمنا الآن، الأفضل أن نظل داخل العاصمة، لنذهب إذن إلى سينما سوديكو في الأشرفية لنحضر فيلما ننسى مع أحداثه كل مايدور حولنا من أحداث. طيلة الوقت كان القلق يكسو الوجوه في كل مكان مع أن

الدنيا لم تكن قد اشتعلت بعد، برغم كل التفاصيل استمتعنا بالفيلم الذي كان من بطولة المتألق آل باتشينو، وعدنا إلى الأوتيل نحاول أن نهرب من قلقنا من جديد ولكن هذه المرة كانت المهمة أصعب بكثير. سائق التاكسي المتوتر والعصبي يصب الشتائم على كل من في لبنان وعلى كل العرب والمسلمين، كان مذيع الراديو يسأل محللا سياسيا من الذين يروجون في زمن الحرب عن توقعاته لما سيحدث في الغد، قبل أن يحلل المحلل فلوسه أطفأ السائق الراديو وشتم عضوا حساسا في جسد أم المحلل وأخت المذيع قائلا: «أنا راح إقلك شو بيحصل.. راح ناكل قتلة منيحة تانبكي دم..وبعدين بدون يتفاوضوا معنا.. مفكر حاله حسن نصر الله راح يقولوا له: دخيلك شو بدك راح نعطيك بس هات الأسرى». أوافقه على كلامه وأتأمل فيما قاله، يبدو كلامه صحيحا، تنظر إليَّ زوجتي معاتبة لتأييدي له، من الصباح ونحن مختلفان حول تقييم العملية وتوقع ما يحدث، أقول لها: «صحابك في حزب الله هيخلوها خل وفاكرين إن اسرائيل هتبكي على لبنان». من بعيد ربما تراني متخاذلا وانهزاميا لكنك لو كنت مكاني ربما لسألت نفسك عن جدوى أن تجر شعبا كاملا إلى الموت وأنت تعلم أنه لن يقف معك أحد في هذه الأمة الميتة. لم أحب قائدا سياسيا عربيا مثلما أحببت حسن نصر الله، لكنني كنت أعلم دائما أن تميز حزب الله أنه الحزب الإسلامي الوحيد الذي يبني كل قراراته على أسس علمية ولديه خبراء في الإستراتيجية العسكرية والسياسية يرجع إليهم قبل اتخاذ كل قرار. في رأيي للأسف الشديد حسبوها غلط هذه المرة، مررنا

في ساحة رياض الصلح حيث كان بعض الشباب مخيمين هناك في اعتصام تضامني مع الفلسطينيين واستعدادا لمسيرة حاشدة في اليوم التالي تشترك فيها كافة القوى السياسية. شتم السائق أمهات وأخوات الواقفين، ثم قال لنا مبررا موقفه: «هادولي كلياتون عملاء لإسرائيل.. خلي حدا فيهون يسمع صوت رصاصة وراح يفل.. حسن نصر الله عامل لي حاله قبضاي.. ما بيعرف إن إيران ما راح تسأل فيه ولا فينا.. وسوريا ما راح تحارب إلا على الفضائيات.. شوف يازلمة مشكلتنا عنا ناس كتير عاملين لي حالون مشايخ ومسلمين.. لكن هم عملاء لإسرائيل. شوف يازلمة أنا مسلم لكن أكتر ناس أكرههن هن المشايخ عنّا.. المشايخ المزبوطين في أفغانستان وباكستان.. عنّا الشيخ بيمشي بالمصاري وبس». بدأ الرجل يخرف، لكن هل الوقت مناسب الآن للنقاش مع سائق تاكسي؟ لم تكن حكمة السنين قد علمتني بعد أن النقاش مع سائق تاكسي أمر عبثي في كل الأوقات وتحت كل الظروف، الآن نمر على شارع الحمراء، من يصدق أن هذا هو شارع الحمراء المبهج في العاشرة ليلا؟ لا وجود لصريخ ابن يومين في الشارع كله، كل المحال مقفلة، بيروت الساهرة حتى مطلع الفجر تبدو الآن كأنها مدينة أشباح.

نحاول أن ننام بصعوبة، الحمد لله .نمنا. في الصباح صحونا على أصوات الطائرات الإسرائيلية تخترق سماء لبنان، الصوت القوي الداهم يعني أن الطائرات تطير على ارتفاع منخفض، أصوات مضادات أرضية، نجري إلى التلفزيون بحثا عن الأخبار، إنهم

يعلنون فـي الجزيرة الآن عن قصف مكثف لمطار بيروت، من الآن لن يتذكر أحد اسـم الحريري الذي تم إطلاقه على المطار، الأخبار فـي كل الشاشـات تقـول إن القصف اسـتمر طيلة الليـل على مطار بيروت، كنا رائحين في سـابع نومة ولـم نشـعر بشـيء قط، لـم أتذكر عند سـماعي الأخبار أنني المفروض أن أسافر من ذلك المطار بعد أيام. أنظر إلى سـماء بيـروت التي تعربد فيها الطائرات الإسـرائيلية وتنشـر الفزع في قلوب الجميع، أسأل شابا يعمل في الفندق: كيف تطيـر الطائـرات الإسـرائيلية هكـذا علـى ارتفاع منخفـض دون أن تخاف من إسـقاطها بمضـادات الطائرات؟ ينظر إليَّ سـاخرا بمرارة ويمضـي دون أن يعلق على سـؤالي. لـم أفهم سـر نظرته المريرة إلا عندما عدت إلى الغرفة لأشـاهد الكاتب رفيق نصر الله وهو يسخر بشـكل عنيف من القدرات القتالية للجيش اللبـناني: «شو هالجيش اللي ما عندو طيارات ولا صواريخ.. ما عنده غير بارودات بتضرب شـي ميتـن متر لقدام». أسـتغرب هـذه الجرأة وأبررهـا بحرقة قلب الرجل على الذين يتصلون بالبرنامج الذي كان يتحدث فيه ليطالبوا بنزع سلاح حزب الله، محاولا أن يشرح لهم كيف سيكون لبنان من غير سـلاح حزب الله. اللوم يتصاعد مـن الناس جميعا على حزب الله الذي ورط لبنان هذه الورطة التي لا يعلم إلا الله كيف سـيخرج منها، في مداخل الفنادق يتسابق السـياح لإلغاء حجوزاتهم والبحث عـن وسـيلة للخـروج من لبنان، أتشـاور أنـا وزوجتي لاتخـاذ قرار مناسـب لا يورطنا فـي مغامرة غير محسـوبة، تتصل بنـا موظفة من شـركة السـياحة مشكورة لتسـألنا إذا كنا بدنا «نفِلّ»، أوجعتني الكلمة

مع أنها لا تعني الفرار حرفيا بقدر ما تعني سرعة الحركة، في نفس اللحظة كان التلفزيون يعلن عن قطع الطيران الإسرائيلي لطريق بيروت دمشق الدولي. الحركة الآن ستكون خطيرة مع هذا الجنون الإسرائيلي، وزير النقل اللبناني يعلن أن المطار قابل لأن يعود لعمله خلال ٤٨ ساعة إذا توفر القرار السياسي، وأن المدرج الغربي الذي تم تدميره يمكن الاستغناء عن جزء كبير منه. تتعدد الآراء وتتضارب الأقوال، السفارات العربية والأجنبية تبدأ في الاتصال برعاياها في الفنادق المختلفة لكي تبحث معهم هل يريدون الخروج من لبنان وكيف ستساعدهم على ذلك، لاتسألني عن السفارة المصرية فأنا أعلم أن موظفيها بالتأكيد مشغولون بما هو أهم من حياة المصريين، سيقولون لك إن سألت: «طب انت اتصلت بينا وإحنا قصّرنا؟».

هذا هو الفرق، في لبنان يعمل عشرات الآلاف من المصريين في أفقر المهن للأسف الشديد، جمع القمامة أو الزبالة إن جئت للحق، والأسعد حظا منهم يعملون في محطات البنزين، يفضلهم اللبنانيون خاصة بعد رحيل أغلب العمال السوريين عن لبنان بعد «الجلاء السوري»، يفضلهم أصحاب رأس المال لأنهم «آدميون وعندون أمانة وما بياخدوا مصاري كتير». وبالسخرية الأقدار، «المصاروة» لا يأخذون «مصاري» كتير لا في بلادهم ولا غيرها، فقد اكتفوا أن يحملوا من المصاري اسمها فقط، لا أن يحملوها هي شخصيا.

بعد أن أصبحت محطات البنزين هدفا لطائرات إسرائيل وتم قصف عشرات المحطات بدءا من أول يوم في المجزرة، لم نسمع تصريحا واحدا لمسئول دبلوماسي مصري يطالب العمال

المصريين بالتوجه إلى السفارة لمساعدتهم على الإخلاء، أو حتى لم نسمع تصريحا واحدا لمسئول دبلوماسي يقول لنا ماذا تم مع العاملين المصريين الذين استشهدوا في إحدى المحطات التي تم قصفها، ومامصير العمال الباقين. يبدو أن مسئولينا الدبلوماسيين يفضلون العمل في صمت، على عكس كل مسئولي البعثات الدبلوماسية الذين لم يكلوا ولم يملوا من الظهور في كل وسائل الإعلام المتاحة لكي يناشدوا رعاياهم بالتوجه إلى السفارات لبدء إجراءات إخلائهم من لبنان.

في وسط زحمة التحليلات المقلقة والآراء المربكة أستمع إلى تحذيرات عن عصابات مسلحة تستغل الفرصة؛ لكي تختطف الراغبين في الفرار عبر الطرق البرية إلى سوريا لتقوم بقتلهم وبيع أعضائهم الطازجة في تجارة الأعضاء الرائجة في المنطقة منذ زمن، أتذكر المبالغات التي لطالما سخرت منها، لكنني في الحقيقة أخشى الطيران الإسرائيلي الغادر أكثر من تلك العصابات التي يتحدثون عنها، أستقر بعد طول تفكير على أنه من الأفضل أن نستقر في الفندق ببيروت حتى يتم افتتاح المطار، أقول لزوجتي وتقول هي لي: «لن يستمر الأمر هكذا.. لن يقف العالم يتفرج على لبنان.. ستكون هناك جهود للتهدئة.. الأفضل أن ننتظر وما يجري على الناس يجري علينا بدلا من الموت المجاني على الطرق البرية غير الآمنة»، نغني ونرد على بعض، أليس ذلك من أمارات الحب ودلالات صدقه؟

قررنـا أن نخـرج مـن حبسـتنا فـي الفنـدق إلـى بـراح الشـارع، يحذرونتا من الذهاب إلى شط البحر الأقرب إلينا حيث تقع المنارة الشـهيرة وصخـرة الروشـة التـي اشـتهرت بكونها مقصـدا لراغبي الانتحار الصاخب، كان لهم حق فقد قصفوا المنارة في اليوم التالي مباشـرة وأطفأوا نورها. في هذه الأيام لم يعد هناك داع لكي تذهب إلى صخرة الروشـة لكي تنتحر، إذا كنت جادا فاذهب إلى الضاحية الجنوبيـة وانتظر دورك في الموت. اخترنا أكثر الأماكن صخبا لكي نهرب من صوت الطائرات الإسرائيلية التي تحلق في السماء فتنشر الفزع والمهانة في ذات الوقت، رأيت الممثل الكويتي الجميل داود حسـين يجلس مع أسرته وشغالتـين آسيويتين يأكلون بشهية مفتوحة ماشـاء الله، أكبرت في الرجل أنه يجلس الشـغالتـين معه على نفس الترابيـزة كأنهمـا مـن أفـراد عائلتـه على عكـس ماتعـودت أن أرى مـن سـلوك الكثيرين من الأثريـاء العرب على مختلف جنسـياتهم، تونسـت بالرجل الذي لطالمـا أضحكني فنه، قلـت لزوجتي لمزيد من الإقناع باختيارنا المجازفة بالبقاء في بيروت المقصوفة: «شايفه أهوه نجم قد الدنيا وقاعد لحد دلوقتي.. لو كان في مشكلة كان سافر على طول.. أكيد سـأل في السـفارة بتاعته وقالوا له الموضـوع مش هيطول». سـرى ارتياح في نفسـينا مكننا من التأمـل طويلا في مينيو الأكل واستطعام ما طلبناه منه، بقينا في المطعم طويلا وقد وجدنا في الموسيقى العالية التي تنبعث في جنباته مهربا من أصوات الطائرات المقبضـة، لكـن لـن نظل فـي المطعم إلـى الأبد، خرجنا لنتمشـى، للحظات انقطع صوت الطيران الإسـرائيلي، لكنه عاد مجددا لينشر

الرعب والهوان في المدينة، على الشاشات تتوالى تحذيرات حزب الله لإسرائيل بأنه سيقصف حيفا إذا تم قصف الضاحية الجنوبية وبيروت، التحذير جاء ردا على طلعات الطيران الذي اتضح أنه طيران يقوم بطلعات تجسس لم نعرف هدفها إلا في المساء. عندما بدأت أسأل عن الملاجئ أخذ الناس يروون ذكرياتهم معها في زمن الحرب اللبنانية وزمن الاجتياح الإسرائيلي الذي يعود ثانية الآن، كانت الناس تذهب إلى الملاجئ لتقنع نفسها بأنها آمنة لكنهم كثيرا ماماتوا فيها وأصبحت قبورا جماعية لهم، آخر يقول إن الملاجئ كانت وسائل ناجعة في زمن الاقتتال اللبناني الأهلي لأن قوة القذائف الشقيقة لم تكن كافية لتدمير الملاجئ، الأخطر من الموت في الملاجئ كان المشي في الشوارع والقتل على الهوية، لكن القذائف الإسرائيلية التي تزن عشرات الأطنان هي كافية لقتل من في سابع أرض. يا الله، لن يبحث الإنسان عما يطمئنه عند أهل هذه المدينة أبدا، لنذهب إذن إلى سابع أرض لنقنع أنفسنا أننا بذلك نهرب من التوتر، إلى سينما كونكورد في الفردان ذهبنا، قاعاتها تقع تحت الأرض مشكلة ملجأ مثاليا للهرب من أصوات الطائرات، قررنا أن ندخل فيلمين الواحد تلو الآخر، كانت السينما مليئة بالهاربين من أمثالنا، وهو ما فسر لي لماذا لم ألمح نظرة دهشة على وجه قاطعة التذاكر عندما اشتريت تذاكر لفيلمين مرة واحدة، كنا متشككين أصلا عنا. ذهابنا إلى السينما أن نجدها مفتوحة للناظرين، لكنها كانت تغص بهم، مشاعر الرغبة في الهروب التي تسود السينما منبعثة من الجميع تنجح في جعلنا نندمج في الفيلم، ثمة

مشهد ساخن يعبر على الشاشة يجعلني أقول لزوجتي: «ادعي الله ألا ينقض على السينما صاروخ الآن بالذات، لن يكون هذا مشهدا مناسبا نلقى الله به». في الاستراحة نخرج لنسمع أصوات الطائرات التي لا تنقطع، نستمع إلى آخر الأخبار من الراديو الذي يضعه على أذنه بائع الفشار، نعود إلى الفيلم ونخرج منه إلى خارج السينما لكي نأكل شيئا قبل أن نعاود الدخول إليها ثانية، إسرائيل تعلن عن سقوط صاروخ على حيفا من حزب الله وحزب الله ينفي، الناس المتجمعون حول التلفزيونات المتناثرة في مطاعم المول التجاري يستغربون نفي حزب الله، هل لدى الحزب فعلا صواريخ، ولماذا استعجل إطلاق الصاروخ؟ سيدكون بيروت. نعود إلى السينما لنلتهي من قلقنا، أتجنب أنا وزوجتي الأسئلة مفضلين أن نسألها لبعضيْنا، كل حين أقول لها: كلها يومين ويفتحوا المطار، لن تغامر إسرائيل بقصف بيروت. لا تسألني الآن ماذا شاهدت فلاأكاد أذكر، كان الفيلمان اللذان حضرناهما كوميديين، لكن أكثر ما يضحكني الآن عندما أتذكرهما هو منظر رواد السينما في الفيلم الثاني على وجه الخصوص كلما رن جرس موبايل أحدهم ووجدناه يخرج متعجلا، لينصرف الجميع بعدها للحظات عن مشاهدة الفيلم متطلعين إلى باب السينما ليترقبوا، هل سيعود متلقي الاتصال، أم لا؟ لعلهم يعرفون منه عند عودته خبرا عما يحدث في الخارج، لم يعد أحدهم لكي نعرف منه، بدأت أتخيل أننا سنخرج من مخبئنا السينمائي تحت الأرض لنجد سيارات الإسعاف تجوب بيروت التي دكت رأسا على عقب، أقول لنفسي: ألن يكون من الأفضل أن

نخرج من هنا إلى مسجد لكي نعتكف فيه؟ لعل النهاية إذا جاءت تجيئنا في مكان يكون عونا لي على الأخص في تكفير سيئاتي، لكنني أتذكر أن مساجد بيروت لا تفتح إلا وقت الصلاة فقط، فأسأل الله السلامة لي ولزوجتي وأحاول خداع نفسي والاندماج في الفيلم، دون أن أجيب عن سؤال ملح يتملكني: ما الذي تفكر فيه زوجتي الآن؟

نخرج من السينما في الحادية عشرة مساء، نعود قبل منتصف الليل إلى الفندق وسط الشوارع الخالية المهجورة، نذهب لشراء عشاء من المطعم الوحيد الذي لا زال مفتوحا في رأس بيروت كلها، شاب مصري ساقه حظه العاثر إلى بيروت يسلم عليَّ بعد أن تعرف عليَّ، يقول لي إنه من قراء الدستور، ويسألني النصيحة عما يجب أن نفعله الآن، أقول له إنني سأبقى إلى أن يفتحوا المطار بعد يومين، يقول لي إنه لا يعرف ماذا يفعل ولا يجد من يشير عليه، كنت سأشير عليه بأن يذهب إلى السفارة المصرية لكنني خفت من أن أفقد احترامه لي، أطمئنه ويطمئنني ونتبادل التلفونات ونتمنى الخير لبعضينا دون أن نعلم ما الذي سيحدث بعد ساعات. نتابع آخر الأخبار فنقرأ عن ضرب إسرائيل لثاني طريق بين سوريا ولبنان، ضهر البيدر، وكيف تم عزل لبنان الآن برا وبحرا وجوا عن العالم، نحمد الله أننا لم نسلك هذا الطريق الذي مات الأبرياء أثناء قصفه، نترحم عليهم، لكننا أيضا نجد ما يشجعنا على القرار الذي اتخذناه بالبقاء.

آه .. يا الله. يا لها من ليلة عصيبة زادها سوادا مكوثنا أمام التلفاز لكي نتابع التطورات السياسية والعسكرية، ماقاله الكثير من اللبنانيين على الأرض طيلة اليوم عن أن المواقف السعودية والأردنية والمصرية والحديث عن المغامرات والمغامرين كان غطاء سياسيا حقيرا لدعوة إسرائيل لذبح اللبنانيين، لم يكن نبوءة بل كان قراءة صحيحة للأحداث من شعب مسيس تعود على خذلان العرب، كأن إسرائيل كانت تنتظر هذه المواقف لكي تزيد من عربدتها العسكرية. كانت تلك الليلة الأولى في حياتي التي أكره فيها السهر. لم تتمكن زوجتي من مغالبة التعب ونامت. أحسدها دائما على قدرتها على النوم عندما تكون متعبة جدا، أما أنا فعادتي اللعينة بالسهر الدائم حتى الصباح والنوم بعد طلوع النهار جعلتني أكابد بمفردي رعب تلك الليلة الليلاء. في الثالثة والنصف فجرا اهتزت سماء بيروت بطلعات طيران مخيفة وأخذت أرض بيروت تهتز بشدة، التلفزيونات تضيف إلى رعبي مما أسمعه رعبا مما أشاهده من قصف وحشي يدك الضاحية الجنوبية دكا، أفكر في أن أوقظ زوجتي لكي تشاركني رعبي لكنني أخجل من ذلك، فأكتفي بتأملها وأنا أشفق عليها من المصير الذي وجدت نفسها مجبرة على مشاركته معي، أعود للاتصال بمنزل أم جلال في الضاحية الجنوبية لأطمئن عليها أو ربما لأجد من يشاركني عناء ما أنا فيه، لا يرد تلفونها تماما كما كان يحدث طيلة اليومين الماضيين اللذين غابت فيهما فزادتني قلقا على قلق، يقولون إنك إذا سمعت صوت

الطائرة الحربية فأنت في أمان لأنها تكون قد ابتعدت عنك ولم تعد في مرمى قذائفها، عليك أن تخاف عندما لا تسمع صوتها، تمر الثواني القليلة بين سماع صوت طلعة جوية وأخرى كأنها دهر، لم يعد هناك إلا النطق بالشهادتين وانتظار الموت الذي ينتظره الآن كل من في بيروت بل كل من في لبنان، أبدأ في كتابة وصيتي لزوجتي فالموت أقرب إلينا جميعا من حبل الوريد، لكنني أتذكر أنها ستموت معي، أستسخف نفسي لكنني أفتح الكمبيوتر الشخصي وأبدأ في كتابة وصية على عجل مقررا أن أسارع بعدها إلى غرفة الإنترنت في الدور الأرضي من الفندق لأرسل الوصية الأخيرة إلى إبراهيم عيسى مقررا أن أروي فيها شهادتي عن ما رأيته، أكتب أول سطر: «أكتب إليكم من بيروت التي شعرت فيها كم أنا ذليل لأنني عربي. أكتب إليكم لأعترف لكم أنني كنت طيلة ما مضى من عمري أزعم أنني أحب فلسطين وأتضامن مع الفلسطينيين، وأنني اكتشفت اليوم أنني كذاب مثلكم تماما، أعيش الآن رعبا يعيشه الفلسطينيون كل ليلة وهم ينتظرون قصف الطائرات يقع عليهم في أي لحظة، ونزعم أننا نحبهم وندعمهم، هل هكذا يعيش الناس في غزة كل ليلة؟ يا الله».

أنهمر في البكاء وأقفل الكمبيوتر وأنا أشاهد الضاحية الجنوبية وهي تتهاوى تحت تأثير قصف الطائرات التي تعبر فوقنا لتضربها، ربما مكتبي المراسلة الشجاعة لقناة العربية المتخاذلة المنحازة ضد حزب الله في رأيي تقدم تغطية مفزعة لتلك الليلة اللعينة، يَزِلُّ

لسانها فتقول: «بيروت يسودها العهر»، ثم تعتذر قائلة: «بيروت يسودها الرعب». لم تخطئ ربما، بيروت يسودها العهر العربي دون شك. بكيت حتى ابتلت لحيتي، وما من خوف بكيت، بل من ذل وهوان وضعة وضعف، الموت في الغربة شيء مخيف لا شك، لكن من قال إن الوطن معصوم من أن يشهد مثلما نشهده الآن؟ هل سيعصمنا انسحابنا من الوطن العربي كله من مصير كهذا؟ أقول لنفسي: سلم الله مصر من كل سوء، ولكن ماذا عن لبنان وفلسطين؟، الناس الذين يموتون الآن وهم نائمون، ربما هل نموت يوما مثلهم إذا وُضِعنا تحت الاختيار بين حياة المذلة أو الموت بكرامة؟ يدوي صوت انفجار قريب جدا من الفندق، لم يكن قريبا جدا كما فهمنا بعد، لكن أصوات الانفجارات في هدوء الليل صورت لنا ذلك. تصحو زوجتي مفزوعة، تراني غارقا في بكائي، تنظر إليَّ مذهولة، ثم تنظر إلى الشاشة فترى بيروت وهي تحترق، لم أعد أشكو الآن من الوحدة، فقد أصبحنا الآن مواطنين عربيين يتشاركان المهانة والوجع.

لا ندري كيف جاء الصباح، كنا قد أدركنا أنه لابد لنا الآن من أن نغامر ونخرج من بيروت على الفور، إسرائيل لن تتورع عن فعل أي شيء بعد أن وفر لها حكام العرب أجمل غطاء سياسي تتمناه، الأحمق أصلا من كان يراهن على المجتمع الدولي، ونحن ارتكبنا ما يكفي من حماقات، وعلينا أن نتصرف الآن وفورا، لكن علينا في نفس الوقت أن نختار أفضل الطرق البرية ونجمع المعلومات

المتاحة عن أكثرها أمانا،أنزل إلى اللوبي لأحاول الحصول على أي معلومات متاحة من أفواه الرعايا الأجانب المسارعين إلى السفر على الطرق البرية، يعتصرني الألم وأنا أرى كل السفارات العربية والأجنبية تبعث بموظفيها إلى الفنادق للاتصال برعاياهم ووضعهم في صورة ما يحدث. لا تسألني عن سفارتي فأنا مصري، تتصل بي موظفة شركة السياحة مشكورة لتقول لي: «بدي إياك تعطيني رد في عشر دقائق.. في سيارة بدها تطلع من طريق شتورة زحلة على سوريا»، أقفل التلفون وأصلي أنا وزوجتي صلاة الاستخارة، لم يعد هناك أمل في المطار، ليس أمامنا سوى هذا الطريق الذي لا نعرفه وطريق الشمال، أتصل بالحاج جعفر وسط حصاره في النبطية لأطمئن عليه وأنا أخفي بكل انتهازية رغبتي في حسم قراري بناء على ماسيقوله لي، يصرخ فيَّ: «ليش مافليت.. لازم تمشي حالا.. الوضع رايح للأسوأ». أحاول أن أطمئنه بكلام يحاول أن يبدو شجاعا، يزعق فيَّ بشدة: «امشِ حالا من هون.. البلد بده يتحرق»، فأحكي له عرض الموظفة، فيقول لي: «فل فورا.. هذا الطريق بيمر من مناطق مسيحيين ما راح يضربوها.. وطمني فور وصولك.. أنا عمحاول أحكي معك من الصبح»، لم يكن لديَّ وقت لتأمل البعد الطائفي للمعلومة، أخذنا على التلفون معًا نقرأ الشهادتين ثم ودعنا بعضيْنا على أمل اللقاء قريبا مع الأولاد في بوابة فاطمة عندما يعود لبنان ونعود إليه، أتصل بموظفة شركة السياحة لأبلغها بانتظاري للسيارة وأنني موافق على أن أسافر في الطريق الذي اقترحته، لن

أنسى أبدا كم كانت مخلصة وسط كل هذا الجنون وحريصة على أن تطمئنني بأكبر قدر من المعلومات عن الطريق والسيارة والسائق دون أن أكلف نفسي حتى عناء سؤالها عن كيف ستقضي هي أصلا لياليها القادمة وسط الدمار القائم والقادم.

ستأتي السيارة في الواحدة ظهرا، ستبدو الساعات الثلاث الباقية طويلة جدا لو ظللت مخنوقا في هذه العلبة، تركت زوجتي لتحضر حقائبنا وترتاح ونزلت لألقي نظرة أخيرة على بيروت التي ربما لن أراها ثانية كما هي، وربما لن أراها ثانية كما أنا. الناس يمشون ذاهلين في شوارع المدينة، يتزاحمون على المجمعات الاستهلاكية والمخابز والصيدليات ودكاكين الجزارة، الكل يشتري بكل ما يقدر عليه، والكل في ذات الوقت يسأل عن مصير ما يشتريه لو انقطعت الكهرباء بعد استهداف محطات الكهرباء بشكل مباشر؛ لكي يموت الناس حرا وعفنا وجوعا قبل أن يموتوا قصفا، لكن الكل يعمل ماعليه ويشتري بما قدر عليه، أبلغت موظفي استقبال الفندق برغبتي في المغادرة، أقول لهم وهم يحضرون حساب الأيام الثلاثة الماضية: «والله كان نفسي أقعد بس يعني.. ربنا معاكم»، ينظرون إليّ نظرات تقف على شفا العدائية، أنظر إلى أعينهم الزائغة فلا أدري هل يفكرون الآن في مصير أهاليهم في هذه اللحظات، أم في مصير أهاليهم بعد أن يتدمر موسم السياحة وينهار الاقتصاد. ألعن عقلية السيناريست التي تفكر دائما فيما هو أبعد من المشهد الحالي، وأشغل نفسي بتصور سيناريوهات الطريق، أرى مدير

الحجز الموجود على نفس ديسك الاستقبال وهو يقفل مكالمة تلو الأخرى يتلقى فيها أنباء إلغاء حجوزات تصل حتى شهر أكتوبر المقبل، يتلقى المكالمة ويقفلها ويسب كل شيء قبل أن يتلقى المكالمة التالية، كأن الجميع قد حكم على لبنان بموت لا حياة بعده.

لا كلام يمكن أن يعبر عن حالة بيروت في يوم كهذا. أنهي إجراءات المغادرة وأترك زوجتي لتستريح قليلا، وأذهب من ورائها لفعل شيء لا يصدقه إلا من يعرف خبلي، شراء الكتب من مكتبتي المفضلة الكائنة على بعد خطوات من الفندق. في طريقي إليها وعلى رأس شارع قريب يتجمع مجموعة من العجائز في محل أحدهم يتذكرون أيام الحرب التي لم يكتب لهم أن يظلوا بعيدا عنها ولو لبعض الوقت. صاحب المكتبة «مكتبة المعري» يجري اتصالا ببعض أقاربه لكي يقوموا بجر سيارة صديق له تعطلت بعد أن فرغت من البنزين، يقفل ليحاول تأمين بنزين له ولصديقه، «ما عندي مشكلة.. تعودت على الحرب لكن طول الليل عم أحاول أجاوب على أسئلة ابني الزغير وهو عميسألني الحرب بين عساكر ليش بيموتونا إحنا؟». هكذا يقول وهو يصف رعب الليلة التي قضاها في الضاحية، ثم يسألني: «ليش ما فليت يا مصري؟ قول لمبارك: يا عيب الشوم.. إذا مصر بتقول هيك على العرب السلام.. الله يرحمه جمال عبد الناصر». لا أحب عبد الناصر كما يحبه صاحب المكتبة الناصري بامتياز، لكنني أومن حقا وصدقا أن جمال

عبد الناصر في أسوأ أحواله السياسية لم يكن ليفعل مافعله مبارك. صادفت كثيرين من الذين كانوا ضد حزب الله في اليوم الماضي وقد تغير موقفهم اليوم، يقولون لأنفسهم: «صحيح إنو غلط في التوقيت وهيك.. لكن هلأ خلاص القصة مانها حزب الله.. القصة قصة لبنان.. ليش بتقتل مدنيين وتقصف مستشفيات وجسور وتدمر بلد وترجعه عشرين سنة لورا؟ القصة هلأ قصة لبنان كلياتو».

لم أشعر بفداحة ما شهدته من رعب في ليلة الأمس إلا عندما خرجت من الفندق لأسمع صوت الطائرات تحلق فوق رأسي بشكل مستمر وأكثر إفزاعا. لوهلة انفصلت عما شهدته في اليومين السابقين، ظننت أنني أسير بالقرب من المطار حيث الطائرات المدنية توالي الهبوط، لكنني عندما شاهدت تجمهرا لشباب يرفعون وجوههم إلى السماء تذكرت أنها طائرات إسرائيلية وحاولت أن أمنع نفسي من البكاء. الناس حولي يكسوهم الأسى لكنهم لايبدون مذعورين، تجربتهم الطويلة مع الحرب عصمتهم من الذعر، لكن ماذا عن الأطفال الذين لم يشهدوا زمن الحرب؟

لم أحتمل مشاهدة المزيد، قرأت على بيروت السلام وعدت إلى الفندق وظللت أنا وزوجتي في انتظار السيارة التي ستحملنا عبر طرق جبلية إلى سوريا دون أن نعلم أننا كنا على موعد مع مجزرة جديدة في طريق شتورة لم ينجنا منها إلا الله.

صحيح أننا نجونا يومها من الموت، لكن لبنان ونحن نهرب منه كان يموت.

(٢)

«خلّصوا الأغاني هنّي ويغنوا عالجنوب

خلّصوا القصايد هنّي ويصفّوا عالجنوب

ولا الشهدا قلوا ولا الشهدا زادوا

وإذا واقف جنوب واقف بولاده

خلصوا القضايا هني.. ويردوها عالجنوب

اللي عميحكوا اليوم هاو غير اللي ماتوا

المعتّر بكل الأرض دايما هو ذاتو».

كأن أغنية زياد الرحباني المريرة التي تنبعث الآن من تلفزيون لوبي الفندق قد كُتِب عليها أن تظل أغنية خالدة تؤرخ للبنان طيلة حياته الموعودة بنفس الذين يحكون دائما نفس الحكي، بينما يموت نفس المعترين عاثري الحظ الذين يموتون دائما. تذكرتها على الفور بعد أن بدأت المحطات الفضائية اللبنانية تذيع حصيلة دمار الثلاثة الأيام الأولى من المجزرة الإسرائيلية مصحوبة بأغاني مارسيل خليفة وجوليا بطرس وفيروز وماجدة الرومي. كل تلك الأغاني التي تنعي بيروت «ست الدنيا» وتتحدث عن «الكرامة والشعب العنيد» وتسأل: «وين الملايين» وتصرخ: «له لالاه لالاه لالاه»، كلها عادت والعود غير أحمد، وعادِ معها لبنان عشرين عاما إلى الوراء تماما كما تعهد الإسرائيليون، أفكر في شعور موظفي الأرشيف في محطات الإذاعة والتلفزيون وهم يتلقون من رؤسائهم

طلبا باستخراج أغنية «راجع يتعمر لبنان» في أسرع وقت، هل كان أحد يتصور أن الحاجة ستظل قائمة لتلك الأغنية بعد أن تعمر لبنان وعادت بيروت لتصبح من جديد عروسا للعرب.

أقول لنفسي: ماذا لو كان موظفو الأرشيف قد قرروا التخلص من كل تلك الأغاني التي نعت الخراب والدمار وواست أسر الشهداء ولعنت نوم العرب وتخاذلهم؟ من كان يصدق أن المرثيات القديمة لازالت صالحة لمزيد من الموتى؟ تتوالى الأغاني وأتأمل في حال من يغنونها الآن، جوليا بطرس مطربة الثورة والمقاومة تعاقدت مع شركة روتانا التي لم يعد أحد ينتج في الوطن العربي غيرها، وماجدة الرومي تغني اعتزلت الغرام، ومارسيل خليفة مشغول بتأليف الموسيقى الخالصة لكي يظل «منتصب القامة يمشي مرفوع الهامة يمشي»، ووديع الصافي يعد توزيعا جديدا لـ «الله يرضى عليك يا إبني» يغنيه مع ابنه الذي لم يأخذ منه شيئا حتى الصلعة، وصباح تعاني من أزمة مالية تدفعها لعمل دويتوهات مع من هب ودب من المطربات الخنفاوات، والسيدة فيروز سلمها الله من كل سوء ستبقى تحت القصف كما تعودت دائما، لعلها حزينة للغاية لأنها لن تلتقي بجمهورها الذي جاء من كل بقاع الدنيا لكي يشاهدها على خشبة المسرح بعد طول غياب، ولعلها حزينة أكثر لأنها ربما تغني من جديد للجنوب المحرر والمهدد الآن بالاحتلال من جديد «إسوارة العروس مشغولي بالدهب وإنت مشغول بقلوب يا تراب الجنوب». هل أبتعد عن كل المشهد المفزع المحيط بي لو قلت إن جميع هؤلاء المطربين العظام في تلك اللحظة لم يكونوا من

المتصدرين للساحة الغنائية اللبنانية التي كانت وقتها مشغولة بإبداعات دانا أول مطربة لم تخضع لعمليات تجميل، وحرب هيفاء ودومينيك على الواوا، وارتداء أمل حجازي لتي شيرت يرتديه الشواذ في الغرب، لكن في ثوان ذهب كل هؤلاء إلى النسيان وعادت الأغاني القديمة بعد أن عاد الجرح القديم طازجا غزير النزف.

تريد الحق؟ لم تزدني إلا كآبة وهما كل تلك الأغاني التي جلست أستمع إليها في بهو الفندق وأنا أنتظر مع زوجتي قدوم السيارة التي سنهرب بها من جحيم الحرب، لم تَشد تلك الأغاني من عزيمتي كما كانت أتصورها ستفعل، ولم تبث فيَّ روح الحماسة والمقاومة والأمل كما كان يُفترض، ربما لأنها ذكرتني بأنني استمعت إليها هي ذاتها طيلة عشرين عاما أو ربما أكثر، وأنا أشاهد منذ نعومة أظافري حتى خشونتها في كل محطات التلفزيون أشرطة خراب مصورة للبنان المخرب أحيانا بأيدي أعدائه وأحيانا بأيدي أبنائه، لم تكن اللقطات الجديدة التي حضرتها محطات التلفزيون الآن على عجل تحمل نفس الدمار الذي لازال منطبعا في ذاكرتي برغم مرور السنين، لكن هذه الأغاني تنذر به والعياذ بالله.

الوقت يمر بطيئا وذاكرتي الملعونة ترميني بكل ما يسكنها من تفاصيل عن لبنان وحربه ودمه النازف ومعاناة أهله، أستعيد كل ماقرأته عن بيروت تحت الحصار وتحت الحرب، يختلط في ذهني المكدود محمود درويش وهو ينشد «أنا أحمد العربي فليأت الحصار» مع محمود الجندي وهو يلوح بزجاجة الخمرة في فيلم

ناجي العلي سائلا: «هي الجيوش العربية مش هتيجي؟»، حكايا علوية صبح في روايتها (مريم الحكايا) عن مريم في زمن الحرب وهي تختلط بمشاهد زياد دويري وجان شمعون وهم يروون سيرة الحرب التي لم يتخلص اللبنانيون بعد من لعنتها. أتذكر كل شبر زرته في بيروت كأنني لن أراها ثانية، لكن صوت الطائرات الإسرائيلية التي لم تعد تهدر في السماء بل أصبحت تحوم يذكرني بأن الوقت لا زال مبكرا على هذا الانفصال العاطفي عن مدينة يمكن أن تموت فيها بسهولة. لم أعد أحتمل منظر المارة وهم يسيرون لينظروا إلى السماء في أثناء سيرهم في الشارع، لم أعد أحتمل هرولة عمال المحال المجاورة إلى بهو الفندق بين الحين والآخر للسؤال عن آخر جسر تم هدمه أو طريق تم قصفه، لم أعد أحتمل هذا الحوار المتواصل حول حجم ماتم تدميره في الضاحية الجنوبية وتوقع ماسيتم تدميره الليلة أو ربما الآن، عندما أسمع كل هذا وأتذكر أنني أجلس في انتظار وسيلة الهروب من بيروت أشعر بالعار. ليس لديَّ خيار آخر سوى الخروج من لبنان لكني أشعر بالعار، لو لم أعترف لك بذلك العار فسأشعر بالمزيد من العار.

تنشغل زوجتي بالبحث عن أي أخبار جديدة على الإنترنت، بينما أتعرف في اللوبي على شريك رحلة الهروب المنتظرة، «علاء كامل» مصري حاصل على الجنسية الأسترالية، يقيم في الولايات المتحدة حيث يعمل في واحدة من أكبر شركات الأدوية في العالم، جاء إلى لبنان لكي يحضر عرض مسرحية (صح النوم) والتي كانت ستفتتح في بعلبك مساء الخميس، في ذات ليلة اشتداد الهجوم

الوحشـي على لبنان كله من شـماله إلى جنوبه، لم يعتمد علاء على السـوق السـوداء مثلي ولا على علاقات الأصدقاء، اشترى تذكرته من على الإنترنت مبكرا، وأعد نفسـه لحدث تاريخي يضعه في سـجل ذكرياتـه جنبا إلى جنب مع حفلات حضرها في العالم كله لعدد من أبـرز نجوم الغناء. لزوم قتـل الوقت والتوتر، أحكـي له ما قرأته من معلومـات عـن النحـس الذي يطارد مسـرحية (صح النـوم) منذ أن انتهـى الأخوان رحباني منها عام ١٩٧٠، فـي اليوم الثالث لعرضـها مـات عبد الناصـر وماتت معـه المسـرحية، ومن يومهـا لـم تعرض ولـم يكتب لهـا الذيوع كغيرهـا من المسـرحيات الرحبانيـة، برغم أنهـا واحدة مـن أنضج وأجرأ وأفضـل ما كتبا ولحنـا، زياد الرحباني قبـل يومين كان يقول لصديقتنا ضحى شـمس فـي حوار انفردت به في صحيفة السـفير اللبنانية إنه اختار مسـرحيـة (صح النوم) بالذات لكـي يعيـد عرضهـا لأن لديها «نقصا فـي المناعة الوطنيـة»، مفسـرا جملته السـاخرة الرائعة بـأن أباه وعمه لم يكتبا في تلك المسـرحية عـن «جبال ماتنطال وطنطنات وطنية، بل كتبا عن الأحلام البـسيطة للإنسـان المقهور». فتبتني سخريته الودودة من أبيه وعمه، لذلك هو زيـاد الرحباني. علاء لا يحبه كثيرا، يغريني صمت علاء بالمزيد من الرغي للهروب من قلقي وإحباطي، فأذكر له دون مراعاة لمشـاعره كل ماأحفظه لزياد، ثم أبدأ على طريقة عمنا عمار الشـريعي بتحليل لم يطلبه منـي أحد لرائعته «أنا مش كافر.. بـس الذل كافر والفقر كافر والجوع كافر.. أنا مش كافر لكن شـو باعملك إذا اجتمعوا فـي كل الأشياء الكافرة». بمحض إرادتي أنقل مجرى الحديث إلى الطائفية

التي تنضح في كلام أحد المحللين الذين يستضيفهم أمامنا برنامج في تلفزيون الإل بي سي المحسوب على القوات اللبنانية، أحكي لعلاء عن مقطع من مسرحية «شي فاشل» الرائعة لزياد الرحباني عندما يقول البطل للمؤلف: «لاشو بدك في كل رواية بتقول: كلنا إخوة.. إذا كلنا إخوة لاشو في لزوم بدك تقولها»، أقول له إنني لا أجد «زياد» الآن محقا في السخرية من اللبنانيين في مسرحيته «بخصوص الكرامة والشعب العنيد»، لم أر شعبا يتحول من الانقسام إلى الصمود في ساعات قلائل كما رأيت اللبنانيين اليوم.

شريط الأخبار يعلن عن قصف جديد لطريق بيروت دمشق، يذهب علاء الذي لابد فاض به الكيل من رغيي، ليسأل عن سر تأخر السيارة التي نتشارك معًا في دفع تكلفتها التي تبلغ خمسمائة الدولار، كانت تكلف بالأمس نصف المبلغ، الآن تكلف أضعاف ما دفعناه هذا إذا وجدتها أساسا. يطلب من الشركة الاتصال بالسائق الذي يجيبهم بأن الطريق «عجقة» لأن عليها ضغطا بسبب أنها لم يتم ضربها بعد، كلمة «بعد» هذه كانت آخر ماينقصني الآن. يقترب مدير الفندق منا بملامح محبطة ومتجهمة ليقول لنا بأننا نعيش ظروفا استثنائية وأن علينا أن نتحمل لأن كل شيء استثنائي في هذه اللحظة، يهرب أحد موظفي الاستقبال من المحلل الناضح بالطائفية ليقلب على قناة أخرى، لكنه لا يحتمل رؤية جوليا بطرس بشعرها المنكوش زمان وهي تؤكد أن «اللي في وسط الضلوع أقوى من الدروع»، فيهرب إلى قناة أخرى يطرح فيها كاتب مستقل أسئلة مخيفة من وحي استهداف إسرائيل المتعمد لمحطات الكهرباء:

«إذا انقطعت الكهرباء، فكيف سيقوم الناس بحفظ اللحوم والدواجن والمواد الغذائية؟ كم عدد الأطنان التي ستتلف من كل هذا في ثلاجات المتاجر والمخازن، وكيف سيتصرف المرضى والجرحى ومن قبلهم الأطباء في المستشفيات، وكيف سيتواصل الناس مع بعضهم البعض»؟ أسئلة الرجل البديهية جاءت كأنها مفاجآت لم يكن يتوقعها أحد، الكل حولي ينظر لبعضه لكي يتشارك الفزع من المصير الذي تحمله هذه الأسئلة، يعلنون خبر استشهاد عاملين مصريين آخرين في محطتي بنزين، فأتذكر عشرات العمال المصريين الذين شاهدتهم في محطات البنزين والمطاعم ونواصي الشوارع، آخرهم كان عامل النضافة في سينما كونكورد بالأمس، مدير السينما الذي كان غاضبا لاضطراره لإلغاء حفلة فيلم (قراصنة الكاريبي) الجزء الثاني لعدم إقبال الرواد، ناداه قائلا: «تعال يا مصري سلم على بلدياتك»، نظر إليَّ العامل منكسرا وهز رأسه وهرب بعينه من عيني محاولا الانشغال بتنظيف الأرض، لماذا تذكرته الآن؟ لا أدري، لماذا تذكرت الآن كل المصريين الذين قابلتهم في كل الدول التي سافرتها وقد تركوا حضن بلادهم الظالمة لهم، وتحكم فيهم اللي يسوا واللي مايسواش؟ ينقبض قلبي وأنا أتذكر الشباب الخمسة الذين قابلتهم قبل أسبوعين في مطار دمشق التي جاءوها قادمين من ليبيا، أتذكر وجوههم الضائعة الحزينة وهم يقفون محجزين أمام غطرسة الضابط الذي يسألهم: «ليش جيتوا من ليبيا على هون؟»، لم يجدوا إجابة سوى «قالوا لنا إن سوريا مابتدخلش المصريين بفيزة». إنه الهروب، إذن، إلى أي

مكان لايطلب فيزة حتى لو كان بلدا أفقر من مصر. لماذا تذكرت كل هذا الآن؟ بالتأكيد تذكرته فقط، لأن المهانة تستدعي المهانة.

يبدأ الحديث عن تهديد الطريق الذي سنسلكه بالقصف يتردد من أكثرمن محطة، أنظر أنا وزوجتي إلى بعضنا البعض، ثم نقرر أن نقاوم الخوف بوجبة غداء عامرة من مطعم الفندق هي وجبتنا الأخيرة فيه، ولعلها تكون الأخيرة في الحياة كلها، ولذلك كان لابد أن نأكلها بتقدير شديد لها ولأنفاس الحياة التي لازالت تتردد بين جنبات صدورنا، عامل المطعم اللبناني من الضاحية الجنوبية أيضا قال لنا وهو يصر على إظهار مرخله لكي يفتح «نفسنا» على الأكل إنه يتبع تكنيكا جديدا للتواصل مع أهله في الضاحية، رنة واحدة تعني وجود قصف على الضاحية لكنها تعني أيضا أنهم بخير، الرنة الطويلة تعني أن هناك كارثة تستدعي منه أن يرد لكي يتلقى استغاثتهم. نشعر بالخجل ونحن نأكل أمامه، وتتحول الأكلة التي كنا عزمنا على الاستمتاع بها إلى أكلة، لكن بنية «حشو الجوف» استعدادا لطريق لا نعرف له أول من آخر.

بعد الطعام أعود إلى اللوبي فأجد علاء يجلس مغمضا عينيه، بالتأكيد لكي يهرب من أي محاولة رغي قادمة، أجلس لأشغل نفسي بأي شيء سوى القلق، أتذكر أصدقائي في لبنان الذين لم أجد وقتا حتى لكي أقول لهم إنني وصلت لبنان، أغلبهم عرف ذلك بعد خروجي من لبنان عندما شاهدني في التلفزيون أتحدث عن تجربتي. لاأظنهم يلومونني، كيف كنت سأريهم وجهي وأنا أتركهم

يواجهون المجهول، إذا احتملوا هم ذلك فلن أحتمل أنا، أغلب المثقفين منهم لديهم تجربة في التعايش مع الخطر، أتذكر زيارتي الماضية لبيروت في خضم حملة الاغتيالات الجبانة التي راح ضحيتها الكاتب الكبير سمير قصير والناشر الصحفي جبران تويني، أجلس على مقهى ستار بكس في الحمراء مع صديقي الكاتب الرائع يحيى جابر والإعلامي والشاعر زاهي وهبي والرسام المبدع حسن إدلبي، نضحك من قلوبنا على يحيى وهو يحكي لنا كيف يتجمع الجيران للفرجة عليه كل صباح وهو ذاهب إلى مكتبه وهو ينام على الأرض ويمسك بالمقشة ليدخلها أسفل سيارته محاولا البحث عن آثار عبوة ناسفة، لم تكن أم زاهي وهبي قد ماتت وقت زيارتي الأولى، بالأمس قرأت في الصحيفة تغطية لندوة عقدها زاهي لكي يعلن عن جائزة باسم والدته الراحلة للمتفوقين من الشباب، رحم الله والدتك يازاهي، لعلها ماتت في الوقت المناسب حاملة ما يكفي من حرقة القلب على لبنان، كم حربا شهدتها، وكم هما حملته، ها هي قد رحلت وتركت لك وللأحياء الموتى على سطح أرض لبنان عبء إكمال مسيرة الهموم والحروب.

يخرجني من أفكاري التي تزيدني هما على هم صوت علاء وهو يقول منفعلا لأخته: «يا ستي والله العظيم كويس.. أعمل إيه بس عشان تصدقي.. مستنيين السواق.. ما تخافيش.. أهم حاجة ما تقوليش لأمي أي حاجة». يغلق المكالمة ويعتذر لنا عن ارتفاع صوته، يقسم إنه لولا ضغوط أخته لما استعجل السَفر في أوضاع مضطربة كهذه، خاصة أنه متأكد أن الأمور ستهدأ ـ كويس إنك

سمعت كلام أختك يا علاء ـ يقول لنا إنه قال لأمه عندما اتصلت به مع بداية الأزمة لتطمئن عليه إنه الحمد لله لم يذهب إلى لبنان، وإنه بقي في لندن، «لو عرفت هتروح فيها»، يقول لنا ضاحكا إنه سيعتمد على دعاء أمهاتنا طيلة الرحلة، رسائل أمي تتوالى على هاتفي حاملة أدعية قديمة ومبتكرة لكي أرددها، رسالة منها أعقب الدعاء فيها جملة «يا عيني عليك يا ابني.. جت الحزينة تفرح مالقتلهاش مطرح»، من الصعب دائما أن تقنع أمي بمراعاة التوقيت، «لينا كلام بعدين يا ست الكل».

أصبحت الساعة الآن الرابعة مساء، ولا يبدو أن السائق سيصل قريبا كما قيل لنا، بدأنا نبحث خيار عدم السفر إذا تأخر السائق عن الخامسة مساء، لأن السفر في الليل سيكون أمرا في غاية الخطورة، في هذه اللحظات يدخل علينا السائق، اسمه جورج، شكله لا يدعو لأي طمأنينة، شعره الطويل المنكوش المسدل على كتفيه والنضارة الريبان السوداء ومضغة اللبان المستهينة والقميص المفتوح، صورة لابد أن تستدعي إلى ذهنك كل مابها من إكليشيهات للمظهر الخارجي لأفراد ميليشيات الحرب وعصابات الخطف، لكن هل هناك خيار آخر وسط هذا الخطف الجماعي لكل لبنان ومن عليه؟ ونحن ننتظر دخوله إلى الحمام أقول لزوجتي: «على الأقل منظره المريب أرحم من إننا نخرج من البحر في مراكب تحت حماية الإسرائيليين»، تجد أن الأمانة تقتضي إخباري بما قرأته عن وجود أخبار عن عصابات تقوم بخطف السياح العرب لتسليمهم إلى إسرائيل لكي تستخدمهم في الضغط من أجل إرجاع جنديها

الأسـرين، أشـكك في جدية الأخبار ثـم أقول لها ملاطفـا: «يعني ممكن تروح علينا نومة نصحى نلاقي نفسـنا في إسـرائيل مطلوبين للتبادل.. المشـكلة بقى إن ما حدش فـي الحكومة المصرية هيبدلنا بقزازة شويبس».

فيمـا يقف السـائق ليأخذ نقـوده مقدما مـن إدارة الفنـدق، يبدو حريصـا علـى رفـع صوتـه وهـو يحكـي عـن عـذاب الرحلـة التي قطعهـا أكثر من مرة خلال نفس اليـوم، «البيل كابتن» يحمل حقائبـنا إلى السـيارة، أعطيه عشـرة آلاف ليـرة لبنانية مرة واحـدة ليـس كرما ولكـن رغبة فـي التخلص مـن الليـرات الباقية لـديَّ، لا يبدو فرحا بها، بالتأكيد يسـأل نفسـه: كم ستشـتري كيـس خبز لأسرته في زمن الحـرب؟ كل الوجوه تتحاشـى النظـر إلينا نحـن الراحلين، لكي لا نرى ذلك الخليط من مشـاعر الغضـب والحزن وربما الحسـد. هذه لـم تعد بيروت التـي نحبها، تماما كما أننا لم نعـد نحن. على العين الآن أن تودع كل ما يقع نظرها عليه من بشر وحجر، فربما لا تراه مرة أخرى، أقول لنفسـي: لو كان لديَّ كاميرا الآن لصورت كل شبر وكل بشر في لبنان لأحفظ للأجيال القادمة كيف كان قبل أن يصبح القتل جماعيـا وبرعاية عربيـة ودولية؟ لكن إحنا في إيـه ولا في إيه، تبدو الطـرق الخارجة من بيـروت والمتجهة إلى الطريق الذي سنسـلكه خالية بل قل خاوية، فتزداد شـكوكنا في السـائق الذي كان منذ قليل يتحجـج بعجقة السـير، أحـاول أن أظهر له أنني علـى علم بالطريق الذي سنسـلكه، فأسـأله عن أخبـار الطريق، وهل صحيـح أن هناك قصفـا جويـا وقع بالقرب من نقطة الحدود السـورية التي سـنذهب

إليها؟ يجيبني أحقر إجابة في الدنيا، إجابة أحقر من الشتيمة القبيحة في ظروف كهذه: «هلأ راح تشوف بنفسك»، جاءت الإجابة إعلانا من جهته لفرض حظر الكلام بيننا بعد أن لمس شكوكي جلية من كلامي المرتبك، يقوم بتشغيل الراديو على محطة اسمها لبنان الحر، لو كنت جاهلا بالواقع اللبناني لظننتها إذاعة إسرائيلية ناطقة بالعربية، لما تبثه من نشر للخوف بين الناس وتثبيط للهمم ولوم وقح لحزب الله على ما فعله في ظرف لم يعد يحتمل حتى اللوم المهذب.

خرجنا من حدود المنطقة الآمنة وبدأنا ندخل في مناطق تعرضت للقصف، كلما اقتربنا من جسر أو وقفنا تحته تملكنا الرعب، ليس فقط لأن الذاكرة تضايقنا بما اختزنته من صور القتلى على الجسور وتحتها وحولها، بسبب كونها الأهداف الأكثر استهدافا من الطائرات الإسرائيلية، لكن لأن صور الذاكرة تكون أكثر فعالية مع صوت هدير الطائرات الحربية الإسرائيلية، كلما عبرنا جسرا سالمين شكرنا الله على حفظه لنا. استسخفت نفسي جدا فانسحبت من لعبة القلق هذه بقرار فردي، قررت أن أعيش في دور الرحالة الذاهب في رحلة استكشافية إلى سوريا، تذكرت ما قاله لنا السائق السوري ونحن قادمون إلى بيروت بالطائرة: «حدا بيروح بيروت بالطيارة؟»، كان لديه حق، فالرحلة استغرقت ثلث ساعة فقط، إذن لنعتبر أن الفرصة قد سنحت لدينا للذهاب برا إلى سوريا والاستمتاع بالمناظر الخلابة التي تملأ الطريق، أتذكر التفسير الطائفي لصديقي جعفر بقوة وأنا أشاهد حرص السائق على أن يمر في المناطق المسيحية فقط. بدأنا صعود الطريق الجبلي المتجه إلى شتورة ـ زحلة، كلما

أخذنـا فـي الصعود زاد الهـواء برودة وزاد ضغط الهـواء إثقاله على طبلتـي الأذن. كلما نظرت حولي أوجعني قلبي عندما أتذكر أن كل هـذا الجمال يمكن أن يضيع في لمحة بصـر، كأنك في قلب أجمل بقاع أوربا دون مبالغة، الأسـفلت كأنه حرير ينسـاب وسط الفيلات والقصـور والعمارات الفاخرة المتناثرة في أنحاء الجبال مطلة على بيـروت التـي تحترق في الأسـفل والتـي نبتعد عنهـا دون أن نكلف أنفسنا عناء النظر إلى الخلف، في مكان ما نشاهد أسرة رايقة قررت أن تنسـى كل مايحـدث في لبنـان وتخـرج لعمل «بيكنيـك» وأخذ عائلها يشـوي اللحم في جزء من الطريق وسـط الأشـجار الباسـقة والهـواء العليـل والجـو الحلـو، ربما انتهـزوا فرصة ارتبـاك الدولة المرتبكة أصلا فقرروا أن يخرقـوا تحذيرات مصلحة الغابات بعدم إشـعال نار في الغابة، ربمـا لأن لبنان كله يحترق وما عادتش فارقة، لتحتـرق الغابة بأيـدي أبنائهـا إذا كانت عما قريب سـتحترق بنيران قصـف العدو. أخذت شتائم السـائق تنهال عليهم، وربما جعلني ذلك مـن بـاب حب المخالفة له أفكر في ما يقومـون به على أنه ربما كان نوعـا من الصمود، فليـس معقولا أن يكون عبطا صريحا، ربما كانوا مؤمنين بالتفسـير الطائفي أن منطقتهم آمنة من القصف الجوي، «ربنا يطمنهم»، يبدأ السـائق من تلقاء نفسـه في خرق حظر الكلام منطلقا في الحديث عن الناس الذين هربهم إلى سوريا منذ اندلاع الحرب، أقـول له بغضب في سـري: «شـو هربهم هاي.. يا سـيدي الملافظ سـعد». فجأة لـم يعد ينظر إليَّ بنظرات ملتبسـة، مقـررا أن يخصني بنفس نظرات المودة التي يرسـلها إلى علاء، وهو يحكي لنا بسـعادة

شـديدة كيف طلب منه أحد المسـافرين اللبنانيـين الحاصلين على الجنسـية الكندية بالأمس في أثناء سيرهم في الطريق الرئيسي الذي تـم ضربه بعد سـاعات أن يتوقف في مكان من الجبل لكي يشـرب زجاجة «عَرَقي»، يقول إنه كان رجلا تجاوز السـبعين ومعه زوجته، قال للسائق إنه حتى لو مات يحب أن يموت وهو مبسـوط، وهل في الدنيا من هو أكثر انبسـاطا من السـكران؟ أخرجنا صـوت الطائرات الإسـرائيلية من غمرة ضحكنا على طرائف السـائق، أقول لزوجتي بكـذب لا أبذل مجهودا في تزويقه: «ما تخافيش.. ده صوت ضغط الهواء مش صوت طيارات»، تهز رأسـها وتنشـغل بمزيد من الدعاء الذي لم يفارق شفتيها طيلة الوقت، أحاول أن أفهم سر التبلد الذي أصابنـي فجـأة وأنا أصغي إلـى أصوات الطائـرات، الأصوات الآن ليسـت هادرة سـريعة كما تعـودت عليها في بيـروت، هذه أصوات مختلفة، ثقيلة ثقلا كابسـا على النفس، السـائق يقول مفسـرا: «هاي طيارات اسـتطلاع.. أكيد بدون يضربوا الطريق بعد شوي.. ما هيك يا زلمة.. هادول ما يرموا قنابل هيك بيلاش.. لازم يدرسـوا الهدف الأول وبعدهـا يضربـوا». تشـعر مـن فرط بـروده وهو يتحـدث أنه يعمل مرشـدا علـى الأرض لطائرات الاسـتطلاع التـي تحوم فوقنا بكل غتاتة، ندخل إلى قرية مسيحية على الطريق فنشهد سكانها وقد تجمعوا في سـاحة القرية أمام الكنيسـة في انتظار جنازة ما. يا سلام علـى الفال، كلمـا صعدنا في الطريق الجبلي أكثـر زاد الضغط على الأذن واختلـط بصـوت الطائـرات فلا تـدري هل الصـوت حقيقي

أم متوهـم. السـحب الآن أصبحـت تحتنـا واللافتات تحـدد لنا أننا صرنـا أعلـى من سـطح البحر بكذا ألـف متر، ليس مـن الحكمة أن يخرج الإنسـان رأسـه ليتأكد هل هناك طائرات فـي الجو فعلا، كما اتفقنـا أنا ونفسـي منذ قليل: أنا لسـت عربيا مهانا يخـرج فارّا وفأرا من بلد متهك، أنا سائح إسكندنافي خالي البال يمتع عينيه بالطبيعة الخلابـة، «الله إيه الحلاوة دي». أبـدأ في دندنة غنوة فيروز «بحبك يا لبنان بحبك يا وطني»، لكن فيروز نفسـها أبت إلا أن تخرجني من هذا «الفانتازي الإسكندنافي» الذي لم يستمر دقائق، ينبعث صوتها من الراديو كأنها الخنسـاء العائشة في الحزن الأبدي «وطني يا جبل الغيـم الأزرق.. يا قمـر النـدى والزنبـق.. يا بيـوت اللـي بيحبونا.. يا تـراب اللي سـبقونا.. يا زغيّر ووسـع الدنـي.. يا وطنـي.. وطني يا دهـب الزمـان الضايع.. وطني مـن برق القصـايد طالـع.. أنا على بابـك قصيـدة.. كتبتهـا الريـح العنيدة.. أنـا حجرة.. أنا سوسـني.. يا وطنـي.. وطنـي وحياتـك وحيـاة المحبة.. شـو بينـي.. عمتكبر وتكبر بقلبي.. وأيامي اللي جايه جايه.. فيها الشـمس مخباية.. إنت القوي.. إنت الغني وإنت الدني يا وطني».

انخرطنا نحن الثلاثة في نوبة بكاء حادة، واندفعنا نناشـد السائق أن يقفـل الراديـو مباشـرة، ففعل وهو ينظـر إلينا مسـتغربا بملامحه المتبلـدة، مقررا مواصلة تعذيبنا بأن يشـاركنا فـي أمله بأن يظل هذا الطريق سـالما حتى نهاية اليوم لأن لديـه توصيلة بعدنا إلى الأردن، يقول لنا إنه إذا تم ضرب هذا الطريق فلن يبقى سـوى طرق الشـمال التـي تربط بيـن الهرمل وحمص، وهـي طويلة جدا لكنهـا أكثر أمنا

لتشعبها، دون اتفاق نسأله عن ما تبقى لكي نصل إلى الحدود، فيجيبنا بإجابته الأثيرة: «هلأ بتشوفوا».

كنا قد عبرنا زحلة وسهلها، أجابتنا اللافتة أننا قد اقتربنا للغاية من منفذ الحدود، بعد لحظات صدمتنا الجموع البشرية المتكدسة في كل مكان على بعد نصف ساعة من المنفذ، الكل هارب بما قدر عليه، العمال يعبرون الحدود برا بحقائب شبه خاوية، والسواح العرب يعبرونها بسيارات مليئة بالحقائب من كل ناحية، خبرة السائق جعلته يركن في مكان منعزل ويطلب منا التوجه إلى منفذ الحدود لكي ننجز أوراقنا في حين يواصل هو السير وسط جحيم «العجقة»، أمام منفذ الحدود اللبناني عرفنا حجمنا كمصريين، الخلايجة والأجانب يجلسون معززين مكرمين في سياراتهم وحافلاتهم بينما موظفو السفارة ينجزون أوراقهم، بينما نحن كشعب رائد ننعجن وسط الزحام والفوضى مع الرياديين من أمثالنا من أهالي سريلانكا والفلبين والصومال وإثيوبيا. ظننت أن توسلي بصديقنا المصري الأسترالي سيكون شفيعا لنا، لكن ظني كان خائبا فقد قرر كمواطن أسترالي صالح أن يقف في الدور لأن «ما يصحش نطلب استثناء في ظرف زي ده»، وكانت النتيجة أننا وقفنا أكثر من الساعة نناشد أحدا من ضباط الحدود أن ينظر إلينا مجرد نظرة ليختم جوازاتنا، اللهجة المصرية تعرفنا بالمزيد من المواطنين الذين يشاركوننا في بؤسنا الوطني والذين قيل فيما بعد على لسان مسئولي الخارجية المصرية في كل وسائل الإعلام إن كل أسباب الرعاية توفرت لهم من المسئولين. نتشارك في تفاصيل البؤس

التي عشناها ولازلنا نعيشها، مبنى المنفذ الحدودي لا يتجاوز عدة أمتار، لو كان هناك مندوبون للسفارة لشاهدناهم مثلما شاهدنا مندوبي كل السفارات التي تحترم مواطنيها، بعد جهد يتضح أن سر تأخرنا هو أن صديقنا الأسترالي يرفض أن يدفع المعلوم، أربعين دولارا كالتي يدفعها الخلايجة والأجانب لكي يتاح لهم أن ينفدوا بجلدهم. تزداد الفوضى حدة وتعلو أصوات هنا وهناك، وتأتينا المفاجأة، الطائرات الإسرائيلية قصفت الآن الطريق الذي كنا نعبره منذ ساعة، سقط بعض المدنيين قتلى وتهدمت أغلب الجسور التي عبرنا عليها للتو، وسقط التفسير الطائفي، لبنان كله الآن مستباح ومستهدف، لم نعرف هل نشكر الله على لطفه بنا، أم ندعو على هؤلاء الموظفين الأوغاد الذين سرقوا منا فرحة الشعور بالنجاة.

مكالمات الأهل والأصدقاء تتوالى على هواتفنا المحمولة بعد أن أذيعت أخبار قصف الطريق مصحوبة بأخبار عن قصف مواقع داخل الحدود السورية، ارتفعت درجة التوتر إلى أقصى حالاتها، لم يعد هناك مبرر لتمسك علاء بالأخلاق الأسترالية، قرر أن يرفض الابتزاز لكن على الطريقة المصرية، فتح صوته على الرابع ولكن دون أن يفقد تهذيبه أبدا في وجوه ضباط منفذ الحدود مهددا بفضحهم، قلت لنفسي: «بس كده آدي دقني لو طلعنا»، لكن المفاجأة أثبتت أنهم يخافون ولا يختشون، أخذوا منه الجوازات وختموها على الفور وخرجنا من المنفذ، وهو يغلي غيظا قلت له مداعبا: «لو شافك حد من السفارة الأسترالية بتزعق بالقوة دي هيبلغ عنك بتهمة انتحال صفة أسترالي». السائق لم يبادر بدعابة

بـل بنصيحـة: «هالحكي ما راح ينفعك عند الـسـوريين.. أسـترالي كندي كـس أختي.. بدك تدفع يعني بدك تدفع». ونحن نتحرك وسط الزحـام خارجيـن باتجاه الحدود الـسـورية نحاول من بـاب الدعابة المختلطـة بالغـل والأسـى أن نمـارس النق على موظفـي الحدود، محاولين حـسـاب الملايين التي سيحصلون عليها خلال يوم واحد من عشرات الآلاف من الهاربين.

رحلـة أخـرى مـن اليهدلـة والفوضـى ولكـن أشـد وأكثـر ألما نخوضها الآن في الجانب الـسـوري، علاء هـذه المرة لابد أن يدفع بالقانون رسوم دخوله سوريا كأجنبي، لكن كما هو الحال لدينا أيضا في أرض الكنانة «من العيب أن تدفع للقانون وتـنـسى أهل القانون»، لكـن ربـك والحق أهـل القانون لدينـا قانعون مقارنـة بزملائهم في سـوريا. دفـع الرجل أمام أعيننا فـوق المائة والأربعيـن دولارا، كل ذلـك لكي لا يفتحوا معـه تحقيقا طويلا عريضا عن سـر مجيئه إلى سوريا والغرض من زيارته ومكان إقامته فيها، تخيل مشـاعرك وأنت تجيب عن اسـتمارة الدخول إلى سـوريا وهي تـسـألك عن الغرض من زيارتك في حين تنبعث من التلفزيون مشـاهد القصـف الوحشـي المريـع للبنـان، وتنبعـث من بعيـد أصـوات الطائرات الإسـرائيلية الهـادرة بيـن الحيـن والآخـر. فـي الليلـة الماضيـة كان مسـئولو الحـدود فـي الجهتين ينشـدون على كل الشاشـات قصائد شـعرية عـن مجهوداتهـم الجبارة في تذليـل الصعاب للنازحيـن والهاربين والنافدين بجلودهم، نفعنا لحسن الحظ أن علاء «الأسترالي» معنا، فقد انشـغلوا به عنا ولـم يقترب منا أحد، جوازاتنـا تفيد دخولنا إلى

سوريا أكثر من مرة، مما يعني أننا نعلم أن المواطن العربي لايفترض به أن يدفع رسوما عند دخوله سوريا، يدفع فقط وهو يغادرها ربما لكي يشكر الله على نعمته بأنه ارتاح من إجراءات المطار العقيمة.

نفهم من مكالمات المتصلين بنا بين الحين والآخر أن سوريا نفت بشدة أخبار الهجوم على المنفذ الحدودي وعلى عمق أراضيها، كنا نتلقى كل ذلك ونحن نفاصل على ما سيدفعه علاء من رشوة لكي يسمحوا لسيارتنا بالعبور، بعد أن اتفقنا على المبلغ ودفعناه وبدأنا العبور من بوابة المنفذ أوقفنا جندي سوري، قبل أن نسأل بغضب: «في إيه تاني أيها الأشقاء؟»، فهمنا أن الدور في الدفع الآن على السائق نفسه، حاول أن يماطل ويتحجج، مد الجندي الذي يعرفه يده في جيبه، كان السائق قد احتاط على ما يبدو فوضع فيه عامدا ما يقرب من ثلاثة آلاف ليرة، أخرجها الجندي من جيبه وأخذها، قال له السائق مشيرا إلى الضابط الواقف على يسار العربية: «وَلك قدام الضابط يا زلمة»، رد الجندي ردا بليغا: «قدام الضابط وقدام اللي بده يكون يكون». لحظة أن نطق بجملته هذه سقط كل شيء، سقط الوطن العربي كله أمام أعيننا، لم يعد هناك ألغاز ولا أمور تستحق التفسير، لم يعد هناك طعم لحمد الله عالسلامة، فأي سلامة هذه التي ترتجى في أوطان هذا واقعها، نقول لأنفسنا: الحمد لله حالنا أحسن من غيرنا، على الأقل نفدنا من المجزرة التي راح ضحيتها الذين تلونا مباشرة كما عرفنا فيما بعد عند متابعتنا للأخبار ومشاهدتنا لصور مناطق عبرنا منها سالمين، كان جليا من الأخبار المنبعثة من الراديو أننا خرجنا فعلا في التوقيت المناسب،

علاء يشكرنا على دعاء أمهاتنا الذي شمله أيضا. كنا قد تركنا لبنان يحترق وراءنا ودخلنا في تمام السابعة مساء إلى سوريا التي تفتح ذراعيها للإخوة العرب شريطة أن يفتح الإخوة العرب جيوبهم أولا.

أمامنا فرصة للحاق بالطائرة السورية المتجهة إلى القاهرة، السيارة تنهب الطريق بعد كل ما تعرض له ركابها من نهب، زوجتي خجلة من إظهار مشاعر فرحها، أقول لها: «عايز أفرح بس في مثل واقف في زوري بيقول: ما تزغردوش إلا أما تتنصفوا»، أريد أن أعود إلى مصر، لكن قلبي حزين على لبنان، هنا في مواقف كهذه تظهر كل التناقضات جلية، هنا تظهر حقيقة النفس البشرية. أسترجع كل التفاصيل التي شهدتها خلال الأيام الثلاثة الماضية، لأحاول أن أفهم لماذا لست فرحا بخروجي سالما من بيروت كما يفترض. إنه الوهن. دعني أحدثك عن الوهن كما عرفته جيدا. فتحت سماء تعربد فيها الطائرات الحربية الإسرائيلية، وفوق أرض تهوي عليها القنابل ذات الأطنان يمكنك أن تتعرف على الوهن.

الوهن، حب الدنيا وكراهية الموت كما يعرفه سيد الخلق، لن تقابله وأنت جالس تحت التكييف تحاول الاتصال ببرنامج (منبر الجزيرة) لتفش غلك بكلمتين ضد إسرائيل والأنظمة العربية قبل أن تهوي إلى سريرك، ستقابله وأنت معرض للموت في وطن مستباح. هناك وتحت أصوات هدير الطائرات الحربية تتهاوى كل التنظيرات، وفي انتظار الموت المحقق يتأكد لك إذا كنت تؤمن بالله حقا وتحب لقاءه صدقا، أم إنك ستموت على الدنيا. هذا ما علمته لي ليالي انتظار الموت في بيروت. لن أتفوه من

الآن بكلمة لست قدها. الآن أصبحت كلما شاهدت على شاشة التلفاز مناضلا فضائيا يدعو حزب الله لأن يدك عرش إسرائيل ويسوي بقوتها النووية الأرض، سألت نفسي: هل سيحتفظ بنبرة صوته المجلجلة هذه إذا كُتِب عليه أن يخرج أسرته من تحت الأنقاض؟ إذا كان سيثبت عندها فله كل الاحترام والتقدير، أما إذا كان سيجزع فليس عليه أن يناضل تحت ظلال التكيف بدماء من هم تحت القصف. ستذكرني سيادتك بأن قتلانا في الجنة وأن الشهادة هي أرفع منزلة يتمناها الإنسان منا، جزاك الله عني خيرا، لكن اسمح لي أن أسألك: لماذا فقط تعجبنا الشهادة في سبيل الله عندما تكون بعيدة عن ديارنا؟ لماذا نحب الموت في سبيل الله إذا كان أناس آخرون غيرنا هم الذين سيموتون؟ يبدو لك كلامي محبطا بفتح الباء وكسرها؟ أعلم ذلك. فالمرحلة الآن يروج فيها كلام من نوع آخر، فالحرب قايدة وقصف الحناجر دوار. لذلك الأسهل أن تتهمني بالانهزامية والتخاذل والسلبية، وهو أمر حسن إذا كان سيريحك، لكن هلا أجبتني أولا: ماذا فعلت من أجل لبنان؟ لا تجبني بل أجب نفسك وحاسبها، هل فعلت شيئا من أجل لبنان وفلسطين غير الدعاء ومصمصة الشفاه والنضال عن بعد؟ بلاش .. هل فعلت شيئا من أجل بلادك أولا؟ هل رددت الظلم عن نفسك أو عن غيرك؟ هل أنكرت منكرا تعرفه وتعيشه؟ هل تعيش في بلادك حرا كريما عزيزا؟ إذا كانت الإجابة عن كل تلك الأسئلة لا، فلا تحدثني إذن عن العزة والكرامة والنصر المنشود، بل حدثني عن الوهن الذي نحن غارقون فيه حتى أذقاننا.

في مطار القاهرة قال لي رجل كبير في السن يعمل في المطار وهو

يهنئني بالسلامة: «مش عارفين نعمل إيه في إسرائيل دي.. عمالين ندعي عليها في الجوامع ولا بيحوق فيها زي مانكون بندعي لها».
ضحكت وأنا أستغفر الله العظيم معه، لكنني تذكرت أنه عَبَّر بما قاله عن رغبة الملايين منا في أن يستيقظوا من النوم ليجدوا حسن نصر الله وقد دمر تل أبيب وأراحنا من إسرائيل وجيوشها. لا بأس من الحلم طالما لن يدفع ثمنه سوى اللبنانيين والفلسطينيين، لا ضير في ذلك فهم معتادون على الحرب والدم والقصف والدمار، هم في رباط إلى يوم القيامة، أما نحن فقد حررنا أرضنا ثم بالسلام مددنا أيدينا فردت الدنيا علينا بالسلام يا سلام، لا بأس إذن أن نلعن مواقف حكامنا المخزية ونبكي على بيروت ما دام «المعتّرين» و«المتنيلين على أعينهم» من الفقراء الذين لا يملكون وطنا آخر ولا جنسية أخرى هم وحدهم الذين سيموتون.

لا أجد مخرجا لإيقاف الأفكار التي تتداعى إلى نفسي الآن وعليها، سوى أن أحكي لك عن ابنتي ذات الأعوام الثلاثة وهي تقول لي محاولة شرح ما تراه على شاشة التلفاز من وجهة نظرها: «بص يا بابا.. إسلائيل قتلت العيال.. قتلت البيت.. قتلت الشارع». لم تكذبي يا ابنتي والله. لكنك عندما تكبرين ستعرفين أن إسرائيل لم تفعل كل ذلك إلا لأننا قتلنا أنفسنا أولا، وانتحرنا انتحارا جماعيا بجرعة زائدة من الوهن. الوهن الذي دفع ثمنه لبنان الذي عندما نجونا منه هاربين، كان هو يقاوم الموت على أنغام تلك الأغنية اللعينة التي صارت جزءا من قدره «راجع راجع يتعمّر لبنان».

بيروت – القاهرة يوليو ٢٠٠٦

منشورات إسكتلندية.. أو نِدِّي فرصة يا جماعة!

كان المشهد غريبا بالنسبة إليَّ، على الأقل لم أكن قد شاهدته خلال زياراتي السابقة لتلك المدينة الجميلة ولا لغيرها من مدن المملكة المتحدة.

كنت قد وصلت لتوي إلى العاصمة الإسكتلندية إدنبرة بعد أيام معدودة من إعلان نتيجة الانتخابات البرلمانية الأخيرة التي جرت في عام ٢٠١٠ والتي فاز فيها حزب المحافظين ليعود بعد غياب طويل إلى سدة رئاسة الحكومة التي شكلها بعد تحالف رئيسه ديفيد كاميرون مع حزب الأحرار الديمقراطيين برئاسة نيك كليج. كنت أسير ساعة العصاري في شارع الأميرة «برنسيس ستريت» أكبر شوارع إدنبرة وأشهرها، وإذ بي أرى رجلا أحمر الوجه أحمر الشعر منبعج الأوداج ضامر البنيان أشعث الشعر تظهر عليه أمارات سوء التغذية ولا يعرفه من المارة أحد، كان يرتدي معطفا صوفيا رثا أسود اللون، ويضع حول رقبته كوفية صوفية مهترئة حمراء، ويعلق على كتفه اليسرى حقيبة جلدية كبيرة حمراء اللون تبدو مكتظة

بـأوراق اتضـح بعد الاقتـراب منه ومن حقيبته أنها منشـورات رديئة الطباعة، وكان يقوم بوضع غراء على قاعدة واحد من أجمل التماثيل الموجودة في الشـارع بل وفي إدنبرة كلها، ثم يقوم بلصق بعض من تلـك المنشـورات التي اتضح بعـد تعليقها أنها تحمـل صورتي كل مـن ديفيد كاميرون ونيك كليج وقد كتب فوق صورتيهما بخط بارز بالإنجليزية (مطلوبان للعدالة).

قلت لنفسـي: يا الله، هل فاتني خلال الأيام الماضية متابعة أنباء جريمـة شـنيعة ارتكبهـا كلا الرجلين، هُمّا لحقـوا؟ أي بجاحة تلك التي تدفعهما بهذه السرعة لارتكاب جريمة خطيرة تستوجب تعليق منشـورات قاسـية معادية كهـذه؟ اقتربـت أكثر لأقرأ مـا كتب بخط أصغر فـي تلك المنشـورات التي كان أخونا الإسـكتلندي المجهد يجتهـد في لصقها علـى عَجَل، لأفهم مما هو مكتـوب أن كاميرون وكليج لم يرتكبا جريمة شـنعاء، بل لا زالا يخططان لارتكابها، وأن المنشـورات تعبر عن وجهة نظر الحزب الشيوعي الإسكتلندي في خطة الموازنة التي تسـتعد الحكومة الائتلافية الجديدة لتنفيذها عبر وزير المالية الجديد جورج أوزبورن، والتي يرى الحزب أنها ليست إلا جريمـة كاملة المعالم تسـتوجب تقديم المتورطين في التخطيط لهـا إلـى العدالة الناجزة، كانت المنشـورات تحمل عبارات قاسـية يمكن ترجمتها هكـذا بالبلدي إذا تجنبنا اعتماد طريقة معامل أنيس عبيد في الترجمة «جوز البهايم ديفيد كاميرون ونيك كليج وحزبينهم شـوية قتلة وولاد قذرة ـ مشـيها قذرة ـ ولا بد من تعرية مؤخراتهم

وتسليمهم إلى العدالة لأنهم يريدون خنق أطفالنا من أجل أن يسمن أطفال الأغنياء. فلتحل عليهم اللعنة هما واللي يتشدد لهم».

كنت قد قرأت شيئا ما في الصحف البريطانية فور وصولي عن الضجة السياسية التي يثيرها مشروع الموازنة الجديد الذي من شأنه أن يشكل ضررا بالتماسك الاجتماعي للطبقات المتوسطة والفقيرة، لكنني لم أكن أتصور أن يصل الأمر إلى خنق الأطفال، لذلك قررت أن أضرب عصفورين بحجر، أولهما أن ألتصق بالشارع الإسكتلندي، وثانيهما أن أعمل على تحسين لغتي الإنجليزية قليلا. على الفور شرعت في افتتاح محادثة مع أخينا الشيوعي بدأتها بالإعراب عن تقديري لما يقوم به ومصارحته من باب التودد أنني أنا نفسي أمتلك ميولا يسارية، وعندما نظر بريبة إلى الهاتف الثمين الذي أحمله، شرحت له موضحا أنني للأمانة لست يساريا قُحّا، ولكنْ لديَّ «تاتش» يساري، مستعيرا التعبير من مقالة خالدة لأستاذنا صلاح عيسى في كتابه البديع (تباريح جريح)، لم يبدُ أنه مهتم بشرحي بقدر ما بدا مهتما بأن أساعده على حمل حقيبته لكي يتمكن من لصق المنشورات بإحكام دون أن تكون مائلة بسبب انشغال يده الأخرى في حمل الحقيبة الثقيلة. وهكذا وجدت نفسي بفضل «تاتشي» اليساري شريكا في عملية إلصاق منشورات تطالب بتعرية مؤخرتي رئيس الوزراء البريطاني ونائبه وتسليم المؤخرتين إلى العدالة. قررت نقل المحادثة إلى مستوى أكثر عمقا، فأخذت أسأل رفيقي الإسكتلندي عن مبررات الاستعجال في الحكم على مشروع الموازنة الذي لم يأخذ حتى فرصة لعرضه بالشكل الكافي

على وسائل الإعلام لكي يفهمه الشعب قبل أن يأخذ موقفا منه، ثم طفقت أسأله: «أليس من المفروض أن تعطي لمن يتسلم الحكم فرصة لتنفيذ برنامجه خاصة أنني قرأت أن مشروع الموازنة كان معلنا قبل الانتخابات؟ وهو مايعني أن الناخب كان يعلم بالمشروع ولم يتم خداعه، أليس في مثل هذه المنشورات تقليل من احترام الأغلبية التي اختارت الحزبين اللذيْن شكلا الحكومة، ثم إن ما أعلمه أنكم هنا في إسكتلندا ستقومون بعد عامين باستفتاء تقررون فيه مصيركم وما إذا كنتم ستنفصلون عن بريطانيا العظمى، وأغلب الظن أنكم ستنفصلون ولن تكونوا وقتها ملزمين بهذه الخطة؟».

كان رفيقنا الإسكتلندي يستمع إليَّ وهو يتفرس في ملامحي ويزفر متضايقا، لدرجة أنني ظننته على عادة النقاشات اليسارية سيضربني في أي لحظة بجردل الغراء على رأسي، لكنه اكتفى بأن يسألني بنبرة ساخرة: أنت بالتأكيد من العالم الثالث، قلت له بابتسامة تحاول إخفاء نبرات التحفز في صوتي: ياعزيزي ليس لديَّ مشكلة في أن أشهد بقوة ملاحظتك لملامحي ولكنتي، لكن لديَّ مشكلة إذا كان هذا التعليق عنصريا. ضحك وربَّت على كتفي بمودة وقال لي: بالعكس ياصديقي، لا مكان للعنصرية في قلبي ولا في تفكيري، لكن قل لي: من أين أنت أولا؟ قلت له: أنا من مصر. ضحك ضحكة الخبير ببواطن الأمور ثم قال لي: إذن أنت من بلاد الفراعنة، قل لي: منذ كم عام يحكمكم رئيسكم مبارك؟ قلت له: منذ ثلاثين عاما إلا بضعة أشهر، قال لي: أووه يا إلهي، كنت أنوي أن أكون قاسيا في حديثي معك لكنني أراكم تستحقون

الشفقة لا القسوة. انتابتني النعرة الوطنية وقلت له بغلظة: لكنك لم تجب عن النقطة التي طرحتها عليك، كومراد.

ربما أعجبه أنني خاطبته بكلمة (رفيق) فقال لي: ياصديقي، خذها قاعدة في حياتك، لا يمكن أن تعطي السياسي فرصة إلا إذا كنت أحمق، السياسي كالثعبان إذا تركته يتدفأ لدغك، لابد أن تضعه دائما تحت الضغط وتضعه في موقع الدفاع لكي لا تكون لديه الفرصة للتفكير في مصالحه، ولكي تقوم بتذكيره دائما وأبدا أن أيامه في الحكم معدودة، لا بد أن تجبره على تبني الأجندة التي تريدها أنت، لأنك لو تركته في سلام فلن ينفذ حتى وعوده الانتخابية. ثم أشار الرفيق الإسكتلندي إلى المنشور الذي ألصقه وقال لي: هؤلاء القتلة يريدون أن يطبقوا ميزانية تخفض نفقات مراكز الحضانة التي يذهب إليها أطفال الطبقة العاملة، سأتضرر أنا وأطفالي من هذه الخطة، لأن هؤلاء الحكام لا يريدون فرض ضرائب جديدة على الأغنياء، لماذا أمنحهم السلام ولو ليوم واحد؟ سألصق هذه المنشورات ضدهم وسأدعو الآخرين للتظاهر والإضراب حتى يتوقفوا عن هذه السياسات الشريرة، ولن نجعل أبناءنا يدفعون ثمن فشل طبقة الساسة المتحالفة مع رجال الأعمال. قلت له: لكنهم يمتلكون الأغلبية التي ستجعل ما تفعله مجرد اعتراض لا قيمة له، قال لي بثقة حاسمة: وليكن، سأكون أنا وغيري شوكة في مؤخراتهم، سأستمر في تنبيه وإيقاظ هذه الأغلبية التي انتخبتهم بفعل التضليل الإعلامي الذي تقوم به وسائل إعلام يمتلكها تايكونات البيزنس المتحالفة معهم، هل تعلم من هو أول

من استقبله ديفيد كاميرون بعد دخوله إلى عشرة داوننج ستريت؟ إنه تايكون الإعلام روبرت ميردوخ، لماذا سيهتم ميردوخ بأطفالي وأطفال جيراني الفقراء، فليقل في صحفه وقنواته التلفزيونية ما يشاء، أنا لا أهتم، ما أهتم به أنني سأظل أذكر الجميع هنا من حولي حتى لو كانوا أغنياء أو من الطبقة المتوسطة، أن من مصلحة كل منهم أن ينحاز للطبقة الفقيرة لكي يحصل على السلام الاجتماعي، لأن المجتمع الذي يطبق سياسات ظالمة للأغلبية الفقيرة لن يحصل أبدا على الهدوء، وسيبدو أنه حل مشكلات مالية لكنه سيخلق مشكلات اجتماعية مدمرة.

بدا لي كلامه مؤثرا ومقنعا فأحببت أن أشاركه في ما يقوله بقولي إنني قرأت اليوم في صحيفة الجارديان تقريرا عن دراسة أعدتها جهة بحثية حول المشكلات الاجتماعية الخطيرة المتوقعة بسبب خطة الحكومة لإغلاق مراكز الشباب في الأحياء الشعبية البريطانية؟ (نعم، هناك أحياء شعبية في بريطانيا تعاني من بلاوٍ لا حصر لها.. وبالمناسبة حدث بعد أشهر ما توقعته الدراسة عندما قامت حركة النهب المنظم في لندن واتضح أن أحد أسبابها إغلاق مراكز الشباب طبقا لخطة الحكومة الجديدة). فجأة انقطع حديثنا المهم الحميم بعد أن دوى صوت سرينة بوليس، على إثرها اختطف الرفيق الحقيبة الجلدية التي حملتها له ووضعها على كتفه مسرعا، ووجه لي كلمات شكر متعجلة قبل أن يطلق ساقيه للريح. جريت خلفه وأنا أسأله بتلقائية: لماذا تجري؟، لماذا أنت خائف؟ أليست حرية الرأي مكفولة في إسكتلندا؟ ضحك وقال لي: طبعا يا رفيق،

حرية الرأي مكفولة، لكن حرية إلصاق المنشورات ليست مكفولة في مكان كهذا، لو أمسكوا بي فسأضطر لدفع غرامة لا أمتلكها لا أنا ولا الرفاق في الحزب، وانعطف جاريا إلى شارع جانبي قبل أن يختفي عن ناظري.

اليوم أتذكر ذلك الرفيق الإسكتلندي، كلما استمعت إلى أي ناعق يتحدث عن ضرورة أن نعطي الفرصة ونهدأ ونسكن ونسكت في مواجهة السلطة الجديدة التي تحكمنا، دائما سأتذكر ذلك الرفيق الإسكتلندي وهو يقول بتلقائية العارف الخبير: «لا يمكن أن تعطي السياسي فرصة إلا إذا كنت أحمق، السياسي كالثعبان إذا تركته يتدفأ لدغك»، وأقول لنفسي: حقا إن الفرق بين المجتمع المتقدم والمجتمع المتخلف، أنك لا تسمع في المجتمع المتقدم تلك الجملة الكريهة التي لا يراد بها إلا الباطل: «اندي فرصة يا جماعة».

إدنبره - القاهرة ٢٠١٢

حدث ذات ليلة في برودواي!

كنت محشورا حشرة مهببة في المقعد الضيق، أحاول أن أجد سنتيمترا فارغا ذات اليمين أو ذات الشمال لكي أُريح إحدى قدميَّ قليلا، فأصطدم أنِّي اتجهت قدماي بكتلة دهنية تحد من حركتهما ليصبح أقصى ما بوسعي أن أقوم بتحريك مؤخرتي في مكانها صعودا وهبوطا، فقط لكي أوهم نفسي أنني حر الحركة في مقعدي، وأنني لم أخطئ عندما وافقت على الحصول على التذكرة التي وجدتها متاحة في بلكون المسرح، بعد أن ظللت واقفا في الطابور الطويل لأكثر من ساعتين. انتبهت جارتي العجوز السمينة إلى حالتي فنظرت لي بتعاطف وقالت ضاحكة: «كان بودي أن أخدمك، لكن حالتي أصعب كما ترى». كانت حالتها أصعب بالفعل، فحدودها الشاسعة تمتد شرقا من الناحية الغربية من جسدي وحتى منتصف جسد السيدة الجالسة إلى جوارها التي كانت أنحف من في صفنا، لكي أقرب لك الصورة تستطيع أن تقول إن جسمها يشبه جسم المرشحة الرئاسية هياتم في هذه الأيام.

قلت لجارتي العجوز مازحا ومتجاوبا مع توددها: لابد أن نرفع دعوى على إدارة المسرح نتهمها بالتميز لأنها قررت أن تجمع كل البدناء في صف واحد ليجلسوا إلى جوار بعضهم البعض، كان الأولى أن يتم توزيعنا على أرجاء المسرح بالعدل. لم تضحك، ربما لأن الضحكة لم تجد سبيلا إلى الخروج وسط هذه الزنقة، وقالت لي بجدية: بالعكس هكذا أفضل كثيرا، نحن كبدناء يمكن أن نتحمل بعضنا، لكن لن يتحملنا أبدا أحد من أولئك النحيلين الملعوب في أساسهم (بالطبع هي لم تقل الملعوب في أساسهم بالنص، ولكن هذا مافهمته من روح كلامها والترجمة خيانة للنص كما تعلم).

كانت تجلس على يميني سيدة جميلة جدا بدينة جدا، لم يجد زوجها حرجا في حشرها إلى جواري، ليس لأنه ناقص المروءة، بل لأن مقعده كان يقع في بداية الصف وكان يحتاج بجدية إلى أن يضع نصف كرشه في الممر لكي يتمكن من التنفس في أثناء جلوسه. أبدت السيدة تعاطفها معنا وخصّتني بتعاطف إضافي، لأن حالتي أصعب بكثير «أنت طويل أيضا، وكراسي المسرح مصممة خصيصا للسياح الآسيويين ضئيلي الحجم». هكذا قالت لي بمودة قبل أن ينبهها زوجها إلى أن هذا التعليق يمكن أن يكون عنصريا، فنظرت حولها لكي تتأكد من عدم وجود سياح آسيويين، قبل أن تضيف: «لم يعد الإنسان يستطيع أن يتحدث على سجيته هذه الأيام». كانت سيرة الأعراق قد حلت، فسألتني السيدة العجوز: «من أين أنت؟»،

وعندما قلت إنني من مصر، ندت ثلاث آهات إعجاب منها ومن البدينة الجميلة ومن زوجها أيضا، في ذات الوقت الذي كنت أنظر إلى صف بعيد تجلس به من يبدو عليهن أنهن عارضات أزياء، وأفكر أنني كنت سأقدر آهات الإعجاب أكثر لو كانت قد صدرت عنهن. قالت السيدة العجوز إنها تخطط لزيارة مصر «بعد أن ينتهي التوتر لديكم». حاولت أن أكون إيجابيا وأشجع السياحة وكداهون، فقلت لها إن التوتر قد انتهى من زمان وإنني أوصيها هي وكل جيران الصف بأن يدخلوا مصر آمنين، لكنني تذكرت الإعلانات التي كانت تذاع في وسائل الإعلام الرسمية بكثافة قبل سفري والتي تحذر سكان المحروسة من خطر الأجانب الجواسيس، فخشيت «ريلي» أن أكون سببا في تشجيعها على المجيء إلى مصر لتتبهدل على آخر عمرها، خاصة أنها تعشق الرغي كعينيها، وربما رغبت في أثناء زيارتها لمصر أن تعرف آخر أخبار مخزون مصر من الزيت والسكر الذي لا أدري لماذا يشغل الجواسيس أنفسهم بسؤال المواطنين عنه، مع أنه يعلن كل أسبوع في تصريحات صحفية على ألسنة العديد من المسئولين، سيدة رغاية مثل هذه لو جاءت إلى مصر فلن تستطيع مسك لسانها عن السؤال، وعندها ستجد نفسها فريسة للمواطنين الشرفاء الذين تشكل وجدانهم على يد قناة الفراعين وسيادة الخبير الإستراتيجي حسام كاطو عبد الفتاح سويلم، اكتفيت بالتمتمة بكلام عن حلاوة شمسنا وخفة ظلنا، لكنني من أجل الأمانة العلمية لم ينطق لساني قط بأن الجو عندنا ربيع طول السنة، لأن للكذب حدودا حتى لو كان في حب الوطن.

قـرر جارنا البدين فجأة أن يظهر حبه لزوجته، ربما لكي يحارب أي أفكار شـريرة تصور أنها سترد في ذهني لتفسير تلاصق جسدينا، فقرر أن يتبادل معها قبلة طويلة لم يكن المقام مناسـبا لها، لأنه وهو يلف يده لكي يضعها على كتفها وجه لكمة من غير أن يقصد لـسيدة بدينـة تجلس فـي الصف الخلفي، كانت بالصدفة قد أمالت رأسـها باتجـاه مقعدنـا وهـي تبحـث فيمـا يبدو عن قنـاع الأكـسجين لكي يسـاعدها على التنفس. وجه لها اعتذارا خاطفا ولم يبال باسـتمرار غمغمـات الـسيدة الملكومـة وعاد لكـي يقبل زوجته بنهـم لم يكن لـه مبـرر درامـي. قـررت أن أغض البصـر عما يحدث فـي جواري وأنخـرط في حـواري مع الـسيدة العجـوز التي وجدت فيها شـبها مفرطـا من المرحومة الجميلة إحسـان القلعـاوي، بس على أصفر، اتضـح أنها ليـست عجوزة جدا كمـا يبدو عليها، فقـد تقاعدت منذ أشـهر فقط، بعد أن ظلت لـسنوات طويلة تعمل مدرسـة للغة الصم والبكـم في إحدى مدارس منطقة برونكـس إحدى مناطق نيويورك الخمـس الرئيـسية، وأنهـا تـسكن فـي ضاحيـة لونج آيلانـد خارج نيويورك، ومنذ أن تقاعدت قررت أن تشبع عشقها القديم المكبوت للمسـرح، فتحضر كل أسـبوع مـسرحيتين من مـسـرحيات برودواي الشـهيرة، خاصـة وقـد تُوفي زوجهـا الذي لـم تكن تحبـه لأنه كما فضفضـت لـي: هـو الذي تسبب لها في هذه البدانة بـسبب عشـقه لـلأكل ثـم مات، وبعـد موته لـم يعد لديها مايشـغلها سـوى متابعة تعليم ابنتيها، الكبرى تدرس الغناء الأوبرالي، وقد وجدت الأم فيها منـفـذا لتحقيق حلمهـا القديم بأن تصير ممثلة مـسـرح، أما الصغرى

فهـي تحب الرياضة أكثر وتريد أن تصبح بطلـة أولمبيـة لكي لا تنال مصير والديها، «وبناء عليه» تأتي صديقتي العجوز المحشـورة معي من بيتها مرتين في الأسبوع لكي توصل ابنتهـا إلى تدريب أوبرالي في مركـز لينكولن الثقافي الواقع غرب السـنترال بارك حيث تتلقى رعايـة فائقة لأنها موهوبة حقا بشـهادة الجميـع، بينما تأتي الأم إلى شارع برودواي لتدخل في كل مرة مسـرحية تكون قد حجزتها مسبقا علـى الإنترنت مـن المواقع التي تقـدم تخفيضـات لهواة المسـرح، مـدت يدها إلـى حقيبتها وأخرجت منها دليلا إعلانيا للمسـرحيات التي تعرض حاليا على خشـبات المسـرح، ثم تقمصت دور الناقدة المسـرحية بحمـاس شـديد وبكفـاءة منقطعـة النظيـر، فقـد كانـت تلخص لي مضمون المسـرحية في سـطر واحد قبـل أن تعقب عليه بحكـم قاطع جامع مانع «مملة ـ مثيـرة ـ بها رقص رجولي أكثر من اللازم ـ مبهرة تكنولوجيا لكنك سـتملها بعد قليل ـ يجب أن تكون شـغوفا بالطراز القديم من المسـرحيات لكي تحبها ـ رائعة سـتبكي حتـى تبتل لحيتـك وأنت تراها ـ بهـا كلام أكثر من الـلازم ـ جميلة لكنني شعرت بالغيظ لأن كل ممثلاتها نحيفات جدا ـ يا إلهي لمثل هـذه المسـرحية أحب أن أذهب إلى المسـرح»، قبـل أن تميل عليَّ قليلا وهي تشير إلى إعلان مسرحية (جيرسي بويز) وتقول متهكمة: «أمـا هذه فيجب أن تكون شـاذا جنسـيا لكي تسـتمتع بهـا»، قبل أن تقـول لي: «لا أقصـد الإهانة إذا كان كلامي سـيضايقك». شـعرت أنهـا قالـت لي ذلك لأنهـا وجدت أنني لـم أتأثر كثيرا بمـا يدور في جواري من مهارشـات عاطفيـة حولت الكرسـيين المجاورين إلى

كتلة متلاذة، فحرصت على تأكيد أنني متزوج ورزقت بابنتين مثلها تماما، قالت لي وهي تخفض صوتها: «هذا من حسن حظك.. الشواذ هنا أصبحوا أكثر من اللازم.. ليس لديَّ موقف ضدهم، ولكن أنت تعلم»، ثم غمغمت وغيرت الموضوع بأن أخرجت من محفظتها صورا لابنتيها وللمرحوم، قبل أن تسألني عن صور أسرتي. وهي تقلب الصور معي على الموبايل رأت صورة لوالدتي فسألتني عن عملها، وفرحت كثيرا عندما قلت لها إنها مدرسة، سألتني باهتمام: هل تذهب إلى المسرح أيضا مثلي؟ حاولت أن أشرح لها أن طبيعة الحياة لدينا لا تجعل الأمهات لدينا يذهبن إلى المسرح، ولا الآباء أيضا، فنحن نكتفي في الغالب الأعم بمشاهدة أحط أنواع المسرح في التلفاز في الإجازات والأعياد، لم تصدق السيدة أن أمي لم تذهب في حياتها إلى مسرح، قالت لي بحرارة شديدة إنني لن أكون ولدا بارا بأمي، لو لم آت بأمي إلى برودواي لأجعلها تشاهد أجمل المسرحيات الموسيقية المعروضة هنا، ثم سألتني باستنكار: هل تريد أن تموت أمك وهي لم تجرب بهجة المسرح؟ كنت على وشك أن أشرح لها أن أمي متعها الله بالصحة تمتلك مفهوما مختلفا للبهجة مثل كل الأمهات المصريات، لكن أنوار المسرح أطفئت إيذانا ببدء المسرحية، دون أن يتم الدق على أرضية المسرح ثلاث مرات كما تعودنا في مسارحنا، ودون أن يحتاج الناس إلى وقت طويل لكي يهدأوا قبل أن تبدأ المسرحية كما تعودنا أيضا في مسارحنا.

المسـرحية التي بذلت مـن أجلها كل هـذا العناء اسـمها «بتوع الجرايد»، وهي من إنتاج شـركة والت ديزني التي كانت قد أنتجت قصتها أصلا في فيلم موسـيقي عام ١٩٩٢ من بطولة الرائع روبرت دوفـال، و الوجـه الجديد ـ وقتها ـ كريسـتيان بيل الذي اشـتهر فيما بعـد بـدور باتمان وأعمال كثيـرة متميزة، كنت قد قـرأت عن الفيلم لكننـي لم أشـاهده، فقـررت أن أشـاهد العرض ممنيا نفسـي بمتعة فائقـة، خاصـة أن العمليـن يعتمـدان علـى قصـة حقيقية عن أشـهر إضراب لباعـة الصحف من الأطفال والمراهقين والمشـردين وقع عام ١٨٩٩، وهو الإضراب الذي قاده ابن شوارع في السـابعة عشرة من عمره في مواجهة تايكون الإعلام جوزيف بوليتزر، حيث تمكن بعد عناء من إجبار بوليتزر على التخلي عن قراره برفع سـعر النسـبة التـي تحصل عليها صحيفتـه من الغلابة بتوع الجرايد. للأسـف لم يكن الفصل الأول من المسـرحية على قدر أمنياتي، لا أنا ولا السيدة العجوز التي قالت لي تعليقا غريبا جدا في الاستراحة: « انظر.. لن تسـتمر هذه المسـرحية طويلا.. كيف يمكن أن تنجح مسـرحية في برودواي وبها فتاة وحيدة ترتدي فستانا طويلا طيلة العرض». كنت قد وجدت في قدوم الاسـتراحة فرصة سانحة لكي أتحرك وأستعيد علاقة جسمي بالفراغ المحيط به، كان الزوجان الملتصقان قد أخليا مقعديهما فسـارعت بالنهوض مستمتعا بالفراغ الذي لاح لي فجأة، فوجئت بأن السـيدة العجوز لم تتحرك من كرسـيها، وعندما سألتها عـن سـر ذلك قالت لي وهـي محرجة إنها تخشـى أن يختل توازنها فتسـقط على الدرج، وإنها تخـاف من المرتفعات، ولذلك لن تكرر

الخطأ ثانية وتحجز في البلكون الذي ظنت أنه سيكون أفضل في المشاهدة. عدت إلى الكرسي لأجلس إلى جوارها متضامنا معها ومفضلا مواصلة الاستماع إلى تحليلها المسرحي لبقية مسرحيات برودواي التي كانت دون مبالغة قد شاهدت أكثر من ثمانين في المائة منها.

لحسن الحظ لم يكن النصف الثاني من المسرحية مخيبا لآمال كلينا، فقد أبدع فريق الممثلين في تقديم استعراضات جعلت العرض بهجة حقيقية، ليثبتوا للسيدة العجوز أن البهجة يمكن أن تتحقق من غير أفخاذ عارية. بالطبع لا يقف التيار السلفي وراء خروج المسرحية على هذا النحو، كل ما في الأمر أن دراما المسرحية لا تتطلب وجود راقصات، فلم يتم حشرهن لإرضاء الزبون، والسيدة العارية الوحيدة في المسرحية كلها كانت مغنية سوداء بدينة يفترض طبقا للدراما أنها تمتلك ملهى ليليا يذهب بطل المسرحية لكي يرسم لها لوحات المناظر الطبيعية التي تقف لتغني أمامها، كانت المغنية بديعة الصوت، لكنها كانت ضخمة من كل الأبعاد، كدت أموت من الضحك والإحراج عندما صدرت مني في أثناء غنائها ضحكة مصحوبة بصوت إسكندراني كبحته بالعافية، بعد أن مالت عليَّ السيدة العجوز لتقول لي: «دعنا نشكر الله أنها تقف على المسرح ولم تجلس هي الأخرى إلى جوارنا».

انتهى العرض وسط تصفيق حاد متواصل استحقه الممثلون بجدارة، وقبل أن يهم الجمهور بالاستعداد للخروج، أمسك أحد

الممثلين بميكروفون وقال بابتسامة عريضة للجميع: «السيدات والسادة يرجوكم بوليس نيويورك أن تبقوا في أماكنكم لمدة ربع ساعة لأن السيد الرئيس باراك أوباما يدخل إلى المسرح المواجه لمسرحنا الآن، وسيتطلب الأمر عدة دقائق لتأمين دخوله، لذلك يرجى البقاء في أماكنكم». ضحك الجميع لأنهم ظنوا أنه يلقي نكتة، لكن أبواب المسرح كانت لا تزال مغلقة بالفعل وأنواره كانت لازالت مطفأة، كرر الرجل كلامه ثانية مؤكدا على صدقية مايقوله ليسود هرج ومرج بين الحضور، وقبل أن يعم التذمر أرجاء المسرح خرج أحد أبطال المسرحية ليقول للحاضرين إنه يريد أن يشاركهم اليوم في احتفاله بعيد ميلاده. لا أدري إذا كان قد فعل ذلك بتوجيهات من إدارة المسرح لمساعدة الناس على تنفيذ تعليمات البوليس، لكن ما أدريه أن المسرح فجأة انتابته حالة من الحماس عندما قال البطل إنه سيقدم هدية لجمهور المسرحية في هذا اليوم الخاص، وهي أنه سيطلب من زملائه أن ينضموا إليه على خشبة المسرح ويجيبوا عن أي أسئلة توجه إليهم من الجمهور. كنت مشغولا للغاية بأن أسأل عما إذا كان هناك كرسي فاضٍ يمكن أن أنتقل إليه لأنني لم أعد اشعر بأغلب جسمي من التنميل، لكنني خجلت من إحباط فرحة جميع من حولي بما يحدث، خصوصا السيدة العجوز التي شدت على يدي بحماس وقالت لي: «يا إلهي، هذه لحظات خاصة لأول مرة في حياتي أدخل مسرحية ويحدث لي ذلك»، قبل أن تنسى خوفها من الارتفاعات، وتشب على قدميها وهي ترفع يديها لكي تطلب حقها في السؤال، وعندما لم يلتفت

لها الممثل الموجود في الخشبة التي تقع أسفلنا، نادت عليه باسم الشخصية التي يلعبها، وعندما التفت إليها وهي يضع يده على عينيه لكي يهرب من الإضاءة، طلب منها توجيه السؤال الذي لم يكن سوى طلبها أن تقبله قبلة فرنسية طويلة. ضج المسرح بالضحك، وعندما أبدى موافقته، كادت تقفز من الأعلى إلى خشبة المسرح، ولا أدري حتى هذه اللحظة كيف تحولت فجأة إلى لاعبة جمباز لتقفز من فوق كل الأجساد المكتظة بالسكان التي تحيط بها لتصبح في غمضة عين على الباب المؤدي إلى صالة المسرح، لأراها بعد ثوانٍ وهي تصعد على السلم المؤدي إلى خشبة المسرح مهرولة وسط تصفيق حاد، قبل أن ترمي بنفسها في أحضان البطل الشاب، وتقبله من فمه قبلة أزعم أنها ستكدر صفوه العاطفي طويلا، ثم نزلت من على المسرح وهي تصرخ باهتياج لا أظن أنها شعرت بمثله أيام المرحوم أبدا.

بعدها طلبت فتاة اسمها روزالين من الفرقة أن تغني لها أغنية بمناسبة عيد ميلادها الذي يحل اليوم، وعندما غنى لها الممثلون دوت أصوات صرخات لم تبد لي معبرة عن الفرحة، وقد كنت محقا، فقد فقدت روزالين الوعي فور أن شهدت تلك «اللحظة الفارقة»، وانشغل المحيطون بها بمحاولة إفاقتها، فيما كان كل من في المسرح يستمعون باستمتاع إلى أسئلة عدد من أطفال المدارس الحاضرين للعرض والذين كانت أسئلتهم شديدة العمق كما يليق بمن يتلقى تعليما محترما كالذي يتلقونه، فقد سألوا عن الفترة التي تطلبها التدريب على الرقص، وكيف يمكن أن يكون الإنسان ممثلا

مسـرحيا ناجحا، وهل شـاهد الممثلون الفيلم القديـم الذي أنتجته ديزنـي ومـا رأيهـم فـي أداء أبطالـه؟ قبل أن يتوقف سـيل الأسـئلة بإعـلان مـن إدارة المسـرح أن الرئيس أوباما دخل بسـلامة الله إلى المبنى المجاور وصار من حقنا أن نتحرك لكي نخرج من المسرح. صفقنـا جميعـا لأبطال المسـرحية بحـرارة، وخرجنا من المسـرح. كنت سـعيدا للغاية بأنني لازلـت قادرا على المشـي بعد ساعات من الحشـرة الإجبارية. كانت الحركة بطيئة للغاية لأن الذين سبقوا إلى الخـروج من المسـرح أصروا على التوقف لالتقـاط صورة تذكارية للسيارة الرئاسية الخاصة بأوباما التي كانت تقف أمام باب المسرح وقـد أحاطت بها خيمـة بيضاء عرفت أنها تسـتخدم لحماية الرئيس عندمـا يزور مدنا مزدحمة مثل نيويورك؛ بحيث يتمكن من الخروج من السيارة ودخول المبنى الذي يقصـده دون أن يصبح هدفا مكشـوفا لأي قناصة يقفون في المباني العالية المجاورة.

تسـتطيع أن تـدرك لماذا تخيلت في البدايـة أنني دونا عن غيري سـأتعرض لمشـكلة لو شـاركت الباقين فـي التقاط الصـور، لكنني تشـجعت عندما وجدت حشـودا من السـياح من مختلف الجنسيات تقـوم بالتصوير وسـط حالة من الفرحة العارمة. كان رجال حراسـة أوباما الذين يحيطون بالسـيارة يقفون وهـم يضعون على وجوههم ابتسـامة عريضـة بدا جليا أنها جـزء من حزمة التعليمـات التي يصر عليهـا مسـئولو العلاقات العامة الذيـن لا يريدون خسـارة صوت انتخابـي واحـد فـي الانتخابات الرئاسـية القادمة بعد أشـهر. وقف رجـل يبدو أنه الأقدم رتبة والأكثر أهمية لكي يطلب من الحاضرين

التحرك بسرعة لأنهم إذا كانوا يعتقدون أن الرئيس أوباما سيخرج قريبا فإن ذلك لن يحدث، لأنه دخل للتو. سألت سيدة «شكلها فاهمة شويتين» كانت تقف إلى جواري وهي تراقب الموقف بوقار عن اسم المبنى الذي دخل إليه أوباما، فقالت لي إنه مسرح كبير جاء إليه أوباما لكي يحضر حفل جمع تبرعات لحملته في الانتخابات الرئاسية التي كانت على مرمى عدة أشهر حيث سيلقي في الحفل خطابا سيقدمه فيه بيل كليتون. حمدت الله لأن السيدة لم تطلب من رجال الخدمة السرية أن يلقوا القبض عليَّ بتهمة جمع معلومات عن رئيس البلاد. واصلت سيري وسط الحشود البشرية مستمتعا بأن كل من يسيرون إلى جواري ليسوا بدناء. فجأة وجدت السيدة العجوز أمامي وهي تقف في مواجهة صف الحرس الرئاسي لتقول لهم بصوت عال وهي ترفع إصبعها محذرة بجدية: «عليكم أن تأخذوا بالكم من رئيسي جيدا.. لن أسامحكم إذا جرى له شيء»، قبل أن تصرخ بصوت عال وهي توجه رأسها باتجاه الخيمة وهي تتحدث كأن أوباما يسمعها: «أوباما أحبك يارجل.. أتمنى أن تتمكن من إقناع هؤلاء الأثرياء الأوغاد بدفع الكثير من المال لك». علق على كلامها رجل ستيني يبدو متجهما للغاية: «لا تقلقي يا سيدتي. في نهاية المطاف سينجح لأنهم يريدون له أن ينجح». نظرت العجوز إليه شزرا، ثم ابتسمت عندما رأتني، وأقبلت نحوي وهي لا زالت تسدد نظرات نارية للرجل، قبل أن تميل عليَّ لتقول لي: «يبدو أنه من أولئك اليساريين المهاويس». قلت لها ضاحكا: «تعرفين يا سيدتي لو أنك في مصر وخاطبت حرس الرئيس هكذا،

لما كنت قادرة على دخول المزيد من المسرحيات الموسيقية».
نظرت إليَّ ضاحكة، وقالت لي هامسة وهي تشير إلى الرجل الذي أغضبها: «قل كلامك لهذا الأحمق لكي يعرف أهمية أن تكون أمريكيا». لم أضحك هذه المرة، وظللت أسير إلى جوارها وسط الحشود صامتا، لكنها أعادتني لكي أصدر ضحكة مجلجلة في قلب الشارع عندما قالت لي: «هل تعرف أنني نادمة على تقبيلي لذلك الوغد النحيل؟». ظننت أنها تذكرت المرحوم، وهي فسرت لي أنها تقصد الممثل الذي قبلته، عندما قالت: «لم أكن أعرف أن الممثلين عندما يرقصون لمدة ساعتين، تكون رائحة عرقهم كريهة إلى هذا الحد».

نيويورك - ٢٠١٢

حسن بيه الذي لا يحب أردوغان!

كلما شاهدته قلت له: يا أخي أنت بالتأكيد التركي الوحيد الذي لا يحب معبود العرب رئيس وزراء بلادك رجب طيب أردوغان. فيضحك ويقول لي: كثيرون مثلي يدركون حقيقة أردوغان ولا ينخدعون به، لكننا قليلون لأننا متعلمون ومثقفون، بينما حبيبك أردوغان يضحك فقط على البسطاء والغوغاء لدينا، لكنه يوما ما سينكشف، وقد صار هذا اليوم أقرب مما تتصور.

يدور هذا الحوار بيني وبين صديقي التركي حسن بيه منذ حوالي ثمانية أعوام، حين تعودت على أن أزور تركيا وأقضي فيها شهرا كل عام لأجوب مع أسرتي ربوعها المترامية الجميلة، وأجد في وعثاء ذلك السفر ونعيمه تجديدا لأملي بأن أرى أكبر مدن مصر وهي تحظى بما تحظى به أصغر قرى تركيا من تحضر وآدمية. كنت عقب كل زيارة لي إلى حضر تركيا وريفها، أبدو أنا أكثر اقتناعا بأردوغان ليس كشخص بل كمدرسة في التفكير والعمل والتحرك السياسي، بينما يزداد صديقي حسن بيه كراهية لأردوغان لأنه في رأيه يقوم

بالضحك على ذقون البسطاء من الأتراك ويسعى لتنفيذ مخطط أمريكي إمبريالي لتقزيم تركيا ومرمغة أنفها في التراب وإضاعة مجدها الذي بناه لها أبو الأتراك مصطفى كمال أتاتورك. نعم، هذا ما يؤمن به دون أدنى مبالغة حسن بيه الذي تزداد مرارته تجاه أردوغان مع كل نصر يحرزه حزب العدالة والتنمية على حزب حسن بيه المفضل حزب الشعب الجمهوري والذي ينتقل من هزيمة انتخابية إلى أخرى ويخرج من فضيحة سياسية ليدخل إلى أخرى، ربما كان آخرها تعرض رئيس الحزب دينيس بايكال لفضيحة جنسية قبل عام ونصف أطاحت بأحلام مؤيديه في بعث الحزب من رقاده، ومع ذلك فقد كان رأي حسن بيه وكثير من أنصار الحزب أن السبب في تدبير الفضيحة لم يكن سوى أردوغان نفسه،آه والنعمة.

لا تسألني لماذا لم تواجه صديقك بكل ما حققه أردوغان لتركيا من إنجازات اقتصادية جعلتها واحدة من أقوى الاقتصادات العالمية وأسرعها نموا، ولا ما حققه لها من إنجازات سياسية جعلها لاعبا رئيسيا على الساحة الدولية، ولا ما حققه لشعبه من إنجازات اجتماعية جعلت الملايين يلتفون حوله في أصعب معركة يمكن أن يخوضها سياسي تركي: معركة تعديل الدستور لترويض العسكر الذين ظلوا لعقود خطا أحمر لا يجرؤ سياسي على الاقتراب منه، فعاش الأتراك حتى شافوا صورة بها زعيم مدني هو أردوغان يتقدم قادة الجيش التركي سائرا أمامهم بثبات يعكس تحول موازين القوى السياسية في البلاد لصالحه، بعد أن تعرض هو شخصيا لسنوات من قهر العسكر له بالسجن والحرمان من الحقوق السياسية. صدقني

لطالمـا قضيت ليالي ونهـارات بطولها في مجادلات مع حسـن بيه أذكـره بكل هذا وأكثر منه، ومع ذلك لا يجدي حديثي نفعا، لسـبب بسيط هو أن حسن بيه كمواطن ليس ملزما بحب أردوغان ولا تقدير إنجازاته، فهو يعتقد أنه كمواطن تركي ليس مدينا لأردوغان بشـيء من الأساس.

ستفهم ما أعنيه عندما تعرف أن حسـن بيه ظـل يعمل لأكثر من أربعين عاما مدرسـا للتاريخ في إحدى ثانويات إزمير، قبل أن يقوم بالالتحـاق بـدورات متخصصة في الإرشـاد السـياحي ويعمل كل صيف كمرشد سياحي على مدى ثلاثين عاما مستغلا كونه من أصل عربي ويجيد اللغة العربية بطلاقة لكي يعمل مرشـدا سياحيا للعرب والمصريين على وجه الخصوص الذين ارتبط بهم عاطفيا وإنسـانيا دونـا عن بقية الجنسـيات العربية. فـي تركيا لا يحصل المدرسـون علـى مبالغ خيالية بل على مرتبات آدمية، ما يحصل عليه حسـن بيه كان يكفيـه وزيـادة ليعبر الحياة بسـلام، فأبناؤه تعلمـوا في مدارس حكوميـة، لأن المـدارس الخاصـة هنـاك لا يدخلهـا إلا الفاشـلون الذيـن يعجـزون عن مجـاراة تميز وإتقـان التعليـم الحكومي الذي كان محـط اهتمـام كل قادة تركيا مـن أتاتورك وما بعـده، إذا مرض حسـن بيـه أو أحد أفـراد عائلته فهـم لا يحتاجون إلـى الذهاب إلى مستشـفى خاص، لأن المستشـفيات الحكومية تقـدم خدمة متميزة وتضـمه هو وأسرته مظلة التأمين الصحي التي تحترم آدمية الأتراك، لذلك يسـتطيع حسـن بيه أن يحيا حيـاة كريمة بمرتبـه دون أن يلجأ إلـى الدروس الخصوصية التـي تعجب كثيرا عندما سـمع عنها من

أصدقائه المصريين، فيما عدا ذلك تقدم له نقابة المعلمين خدمات مدهشة منها - على سبيل المثال لا الحصر - ما رأيته بنفسي عندما ذهبت أنا وهو إلى مدينة تركية صغيرة وجميلة أيضا تقع على مضيق الدردنيل اسمها (حصارنو). عرضت عليه أن ينزل معي في الفندق الذي حجز لي فيه أنا وأسرتي والذي يعد من أفضل فنادق المدينة حالا، فقال لي ضاحكا إنه يفضل أن يقيم في فندق المعلمين لأنه أفخم وخدماته أفضل، ليتضح أن النقابة تمتلك فندقا متميزا في أغلب المدن التركية لكي تقدم للمعلمين المتقلين للعمل بين المدن أو السائحين فيها خدمات تغنيهم عن البهدلة هنا أو هناك.

لذلك ولغير ذلك من تفاصيلٍ لا يتسع لذكرها المقام، تمكن حسن بيه بعد سنين العمل في الإرشاد السياحي من شراء فيلا لطيفة تقع في مدينة ساحلية بالقرب من إزمير وسيارة ألمانية تساعده على توفير خدمة أفضل لزبائنه ونجح في تغير مسكنه ليقيم في شقة أفضل من التي بدأ مشوار حياته فيها، وعندما خرج على المعاش قبل عامين حصل كأي مواطن تركي يبلغ سن المعاش على لقب «المواطن الأول» الذي يقدم له بحكم القانون جواز سفر خاصا يحمل لقبه الجديد، ويمكنه من الحصول على معاملة متميزة خاصة عند سفره أو عودته إلى تركيا أو عند تعامله في أي مصلحة حكومية، تقديرا من الدولة التركية لهذا المواطن الذي قضى سنوات عمره في خدمتها.

لا أريدك أن تحقد على حسن بيه ولا على ملايين الأتراك من أمثاله، ما أريدك أن تفهمه أن حسن بيه حصل على كل هذه الحقوق

والمميـزات دون أن يكون عضوا في حزب حاكم أو يكون له قريب في أي من مواقع السـلطة، ولا علاقة له بالعمل السياسـي سـوى أنه لا يفـوت انتخابـات أو اسـتفتاء إلا وشـارك فيه. لا زلـت أذكر أنني عرضـت عليه أن يمد إقامتـه في مصر قبل عامين يومـا إضافيا فقال لي إنه لابد أن يعود إلى تركيا فورا لكي يشـارك في الاسـتفتاء الذي تبناه حزب العدالة والتنمية من أجل تعديل الدستور ضمن مشروعه الطويـل لترويـض العسـكر وإخراجهـم شـيئا فشـيئا مـن السـاحة السـياسـية، قلـت له مازحا: ياحسـن بيه أنـت تعرف وأنـا أعرف أن الغالبية سـتصوت بنعم، فلماذا تشـارك وأنت تعلم أنك تخسر؟ هل هناك غرامة مثلا؟ لم تعجبه الدعابة كشأن الأتراك عندما يتعلق الأمر بمزحة يشـعرون أنها تحط من كرامتهم ولو قليلا، وقال لي بصوت متهـدج: هـل تنتظر مني أن أتفـرج على وطني وصديقـك أردوغان يعبث به؟ سأسافر لأقول له: لا، ولو كنت الوحيد الذي سيقولها.

من الناحية العملية، كل ما حققه أردوغان لتركيا يصب مباشرة في مصلحة حسن بيه الذي تحسـنت ظروفه وحياته وانتعشت السـياحة فأنعشت دنياه، ومع ذلك فهو لا يعترف بذلك أبدا، لأن الديمقراطية ببسـاطة لا تعني ضمـان تأييـد المحكومين بل تعنـي ضـمان حقهم في السـخط الدائم. وأردوغـان ذاته بوصفه سياسـيا مخضرما يعلم ذلـك جيـدا، لذلك لـم يقـرر أن يتخصص فـي لعـب دور المظلوم المضطهـد المحارب مـن الدولة العميقـة، برغم أنـه اضطهد كثيرا إعلاميا وسياسـيا من عناصر الدولة العميقة الشرسة والتي أسـقطت سياسيين كثيرين من قبله، لكن أردوغان أدرك أن بقاء السـياسي على

قيد الحياة لا يرتبط بصفقاته مع الجيش أقوى السلطات في البلاد، بل بقدرته على تحسين ظروف الناس وربطهم به، لذلك فقد ارتبط من أول يوم في عمله السياسي بقصة حب مع الفقراء والمهمشين منذ بدأ عمله السياسي من قاع المدينة، ولا أستخدم ذلك التعبير مجازا، بل أعنيه حرفيا، عندما أشير إلى بلدية (باي أوغلو) الذي انتخب أردوغان رئيسا لها في عام ١٩٨٩ ليصبح الرجل المتمي إلى حزب ذي خلفية إسلامية يتربص به العسكر والعلمانيون، مسئولا عن الحي الذي اشتهر بوجود شوارع الدعارة المرخصة قانونا فيه. وفيما توقع الجميع له فشلا ذريعا نجح الرجل في تحقيق إنجازات مدوية، جعلته بعدها بخمسة أعوام فقط يتخب رئيسا لبلدية مدينة إسطنبول الكبرى، ليحقق إنجازات أسطورية غيرت وجه إسطنبول إلى الأبد، وجعلت الناس في تركيا كلها يثقون في قدرته على أن يكون أهلا لتحمل مسئولية إنقاذ تركيا هو وحزبه الجديد (العدالة والتنمية) الذي خرج به بعيدا عن ركاب قائده التاريخي نجم الدين أربكان.

عندما قرر أردوغان أن يترشح لرئاسة بلدية إسطنبول في مارس ٩٤، شنت الصحافة عليه حملة شرسة لتشويهه ستجد نماذج لها في كتاب مهم صدر عن قصة حياته كتبه الكاتبان التركيان حسين بسلي وعمر أوزباي وترجمه الدكتور طارق عبد الجليل، حيث خوفت الصحافة سكان إسطنبول بأن أردوغان الذي كان مرشحا عن حزب الرفاه وقتها سيستخدم كل إمكاناته ليتدخل في أسلوب معيشة الناس، وأنه سيطبق نظام الحرملك في أتوبيسات المدينة

وسيغلق المطاعم والحانات والمحال التي تقدم الخمور، وسيخير العاملات في البلديات بين وضع الحجاب أو ترك العمل، وبدأت في نشر أخبار عن قيام رجال ملتحين بمنع الفتيات المتبرجات من ركوب الترام. وإزاء تلك الحملة الشرسة أصدر أردوغان تعليمات لأعضاء حملته بعدم الرد على تلك التفاهات مهما بلغت حدتها، طالبا منهم التركيز فقط على وعود محددة يتم تقديمها للناس هي: أن جبال القمامة ستختفي من إسطنبول، وستنساب من الصنابير المياه النظيفة وليس الصدأ، ولن يتنفس أهالي إسطنبول السموم، ولن تتسبب المواصلات في إتلاف أعصابهم، وستنجو الآثار الثقافية والتاريخية في إسطنبول من أعمال السلب والنهب، ولم تكن تلك مجرد شعارات بل كانت محاور برنامج عملي أعده أردوغان بالتعاون مع علماء وخبراء ينتمون إلى حزبه، وعندما انتخبه الناس ربما ثقة في تجربته الناصعة في بلدية بي أوغلو، وربما زهقا من السياسيين الذين جربوهم طويلا فأفسدوا في البلاد، لم يكن القرار الأول الذي اتخذه أردوغان تغيير حياة الناس بالقوة ولا منعهم من شرب الخمور والدخول في صدامات تعرقل مشروعه النهضوي الذي كان يحلم به، بل كان قراره الأول كرئيس لبلدية إسطنبول الكبرى دالا للغاية على عقليته وتفكيره ومستقبله السياسي، كان يوم استلامه للوظيفة يتزامن مع احتفالات عيد الطفولة، حيث أعلن وثيقة لحقوق الأطفال في إسطنبول تنظم كل مايمكن أن يحصلوا عليه من خدمات في كل أحياء إسطنبول بشكل تفصيلي بعيدا عن الشعارات، وبدأ قراره الأول بأن يتمكن الأطفال المعوقون من

ركوب سيارات النقل الجماعي الحكومية مجانا ويتلقون علاجا مجانيا في المؤسسات الصحية التابعة للبلدية، وبدأ تنفيذ القرارين على الفور، ليكونا باكورة سلسلة من القرارات المدهشة التي سأواصل حكايتها لك في الفصول الثلاثة القادمة لعلك تعرف لماذا لم يتأثر رجب طيب أردوغان طيلة مشواره السياسي بكراهية صديقي حسن بيه له، ولعلك تدعو الله أن يرزق مصر برئيس فاهم واعٍ يأتي من القاع لكي يصلح قمتها.

الوجه القبيح لأردوغان!

آه والنعمة، صديقي التركي حسن بيه الذي لا يحب رجب طيب أردوغـان لديه يقين قاطع أن لأردوغان وحزبه وأنصاره وجها قبيحا سيكشفون عنه يوما من الأيام، ليحولوا تركيا إلى مجتمع فاشي قمعي يجرجر السافرات من شعورهن ويجبر الرجال على إطلاق اللحى ويضربهم بالعصي إذا لم يصلوا في المساجد، وأن كل ماأظهره أردوغان من تسامح ووسطية واستنارة طيلة السنين الماضية ليس أمرا بمزاجه، بل هو مجبور عليه لأن تلك هي قواعد المجتمع التركي العلماني التي سنها أبو الأتراك مصطفى كمال أتاتورك.

كان أردوغان سيكفي صديقي حسن بيه مؤونة كراهيته، وكان سيكفيك عناء الغيظ من متابعة إنجازاته ومقارنتها بإخفاقاتنا، ولم تكن ستسمع أصلا عن دوره في تقدم بلاده وقلب كل المعادلات السياسية في تركيا المعاصرة، لو كان عقب حصوله على ثقة أهالي إسطنبول الذين منحوه منصب رئاسة بلديتها الكبرى في منتصف التسعينيات قد قرر أن يخوض سلسلة معارك لتغيير طريقة حياة

الناس والتدخل في خصوصياتهم والاصطدام بكل ما يعتقد أنه مظاهر منافية للدين الإسلامي الذي تفقه فيه عندما التحق بمدرسة (إمام - خطيب) الدينية وحفظ فيه القرآن وأجاد تلاوته وتجويده. كانت إسطنبول فور توليه حكمها مليئة بمحافل السكر والعربدة والفسوق التي كان يمكن أن يخوض ضدها معركة ضارية مستندا إلى ثقة الناخبين به، وكان يمكن أن يجد لقراراته مبررات اجتماعية، ويلعب على عواطف الأتراك الدينية ويتحمل مسئولية قراراته حتى لو أوصلته إلى السجن أو الحظر السياسي كما حدث لسياسيين كثيرين من قبله اختاروا الاصطدام بمظاهر الحياة التي يرفضونها، لكنه لم يفعل، بل حتى لم يحاول فعل ذلك، وقرر أن يقدم نموذجا مختلفا للسياسي الذي يفهم روح الإسلام وجوهره، ولذلك كانت معركته الأولى مع القاذورات، ليس القاذورات السلوكية التي يرفضها في شكل الناس، بل القاذورات التي تملأ شوارع إسطنبول المدينة العريقة التي حولها السياسيون الفشلة إلى مدينة بائسة تخنقها الزبالة.

لم تكن مهمة أردوغان سهلة، فحزبه لم يفز بأغلبية أعضاء مجلس البلدية، بل على العكس فازت الأحزاب التي تعارضه بمنصب النائب وبكل رئاسات اللجان، وإذا وضعت ذلك إلى جوار الهجوم الإعلامي المكثف ضده وتجاهل كل ما يقوم به من قرارات جيدة، فقد كان الأمر يتطلب أعصابا فولاذية لكي يواصل العمل دون كلل. ومع ذلك فقد قرر أن يصم أذنيه عن كل ما يسمعه

ويبدأ بحملة تنظيف وتطهير مكثفة لشوارع المدينة وحدائقها. ولكي يحقق جذبا إعلاميا لما يفعله قام بتفصيلة لطيفة حين التفت إلى صندوق تبرعات أثري ظل مدفونا تحت الأرض من سنين حتى غطته القمامة من كل جانب، فقام بالإعلان عن إجراء عملية تنظيف للصندوق وفرز ما به من تبرعات، فاجتذب ذلك اهتماما إعلاميا كان أردوغان يحتاجه لإطلاق حملته القومية لتنظيف إسطنبول، وهي الحملة التي استمرت مائة يوم كاملة عقد بعدها أردوغان مؤتمرا صحفيا ليقدم كشف حساب للناس بما حققه، ملقيا خطابا رائعا دعني أقرأ لك منه هذه الفقرة «.. إن بلدنا أدارته على مدار نصف القرن الأخير أحزاب سياسية ومفاهيم وعقليات وكوادر مختلفة، وكان زعمهم جميعا هو نقل هذا البلد إلى مصاف الدول المتقدمة، إلا أنهم ومع الأسف لم يستطيعوا الوفاء بهذا الادعاء، بل إنهم لم يقدموا حلولا جذرية لأي من قضايانا، والأكثر من ذلك أنهم دفعوا ببلدنا إلى طريق مسدودة وحولوا قضاياه ومشاكله إلى صورة أكثر تعقيدا.. وظلوا دائما بعيدا عن الشعب، وشعر الشعب من خلالهم بالغربة، وتضررت الدولة، وانشغلوا دائما بانتهاج طرق ومسالك غير التي يريدها الشعب. لقد مرت مئة يوم على استلامنا لإدارة البلدية، وخلال هذه الفترة واجهنا ممثلي العقليات التي طالما ظلمت الشعب وهم يسألوننا نحن الآن عن حساب ما اقترفوه ومانهبوه بأيديهم خلال التسعين عاما الماضية، وبدأوا بصورة منظمة وجماعية حملة افترائية ضدنا بقصد إقصائنا».

كان أردوغـان قد تعرض للسـخرية من خصومـه الذين قالوا إنه سـيقوم بحل مشـكلة نقص المياه في إسـطنبول بصلاة الاستسقاء، وهـو لـم ينـس ذلـك في خطابـه، فانتقد سـخريتهم من قيم الشـعب وتراثه، لكنه لم يتوقف عند هذه النقطة طويلا بل شرح للناس أسباب نقـص المياه بسـبب فسـاد الحكومات السـابقة وبالأرقـام، وبعدها مباشرة طرح الحلول التكنولوجية التي يفكر فيها لحل مشكلة نقص المياه وتكلفتها وأعلن عن أول مشروع عملاق يتبناه لعمل خط مياه ضخـم يبلغ طوله ٢٣ كيلومتـرا، وأعلن عن فتح باب المناقصة أمام الرأي العام. وفي يوم المناقصة واجه أردوغان تحديا لمبادئه عندما تقدم إلى المناقصة واحد من أعز أصدقائه اسمه رشاد سوزان، لكنه وصل متأخرا خمـس دقائق بعد إغلاق باب تلقي الطلبات، ورفض أردوغان الاسـتجابة لطلب صديقه في عمل اسـتثناء لـه مع أنه كان سيقدم عرضا أفضل، فقد كان أردوغان حريصا على أن يضرب مثلا في تغيير العقلية التي تدير إدارة المياه والصرف الصحي بإسـطنبول التي كانت غارقة في الديون والفسـاد، وكان لتلك الحركة الصغيرة التـي فعلها مفعول السـحر علـى كل العاملين فـي الإدارة التي أعاد أردوغـان هيكلتهـا لتتمكن مـن تحقيق كم ضخم من المشـروعات خلال تسـعة أشـهر من عـام ١٩٩٤، مقررا أن يحمل كل عام اسـما يلخص هدفا رئيسـيا يسـعى لتحقيقه، فسـمى عام ٩٥ عام الانطلاق محددا قائمة مشـروعات تعهد بإنجازها نهاية العام ونجح في ذلك، وهـو نفس ما حدث في مشـروعات عام ٩٦ الذي أطلق عليه اسـم

(عام البيئة)، وعام ٩٧ الذي حمل اسم (عام البوسفور)، وعام ٩٨ الذي حمل اسم (عام بحر مرمرة الأزرق)، وفي نهاية تلك الأعوام الأربعة ونصف العام كان أردوغان قد تمكن من حل مشكلة نقص المياه في إسطنبول التي كان الناس يقولون لبعضهم على مدى سنين: لو وجدنا من يحلها فسندعه يبقى رئيسا للبلدية مدى الحياة، وهو ما فعله أردوغان.

يقول الصحفيان التركيان في كتابهما عن قصة حياة أردوغان والذي أشرت إليه في الفصل السابق، إنه إذا كان أردوغان في الأعوام العشرة الأخيرة قد تحول إلى قائد غَيَّرَ من صورة تركيا، فإن ذلك قد تحقق أساسا من خلال المشروعات التي قام بها في إسطنبول، وما أثارته من ثقة به على المستوى الشعبي، خاصة أنه قام بترميم التراث التاريخي لإسطنبول والذي ظل مهملا لسنوات طويلة، وأعاد لإسطنبول مكانتها كمدينة تراثية عالمية، وقام بحل مشكلة تدوير القمامة ورفعها من العديد من الساحات ليقوم بتحويل تلك الساحات إلى ملاعب رياضية ومراكز للشباب، وأعلن عن بدء مشروع لتخفيف زحام المرور في إسطنبول خصص له ميزانية بلغ قدرها ١٦ ترليون ليرة، وقام بتطهير مضيق البوسفور من الطين، وقام برفع عدد المساكن التي تعمل بالغاز الطبيعي في إسطنبول إلى الضعف، لكي تنخفض نسب تلوث الهواء في إسطنبول بنسبة ٧٠ في المائة بسبب تخلص الكثيرين من استخدام أنواع الفحم الرديئة في التدفئة، وحرص على ألا يتم استثناء الشارع الذي يسكن

فيه لكي يتم إدخال الغاز الطبيعي له قبل أن يأتي دوره ليضرب مثلا في ذلك للشعب التركي الذي كان يعتبر فساد السياسين لديه قدرا لا فكاك منه، وكان لديه تقليد طيلة سنوات ولايته لرئاسة البلدية أن يحدد تاريخا للانتهاء من المشروع في حفل افتتاح المشروع، ولم يحدث ولو لمرة أن أخلف موعدا من تلك المواعيد، بل كان العمل ينتهي دائما وفقا للجدول الزمني المحدد له، وكان ذلك معجزة في بلد شرقي يعشق الرحرحة في المواعيد، وكل ذلك تحول إلى حديث الناس في تركيا كلها وليس في إسطنبول فقط، وبدأ الناس يتطلعون إليه بوصفه مشروع قائد تحتاجه البلاد كلها.

في نهاية أعوامه في البلدية لم يعد الناس يتذكرون ماكان يقال بحق أردوغان في اليوم الأول لتوليه منصبه، عندما انشغلت معظم وسائل الإعلام بسؤال واحد هو: هل سيغلق رئيس البلدية الجديد بيوت الدعارة والبارات الموجودة في حي باي أوغلو والتي تعمل بشكل قانوني؟ وجاء رد أردوغان يومها شديد الذكاء إذ قال للصحفيين: «ألا توجد في إسطنبول مشاكل سوى هذه؟». وبعد عام من العمل الدءوب والانشغال بهموم الناس دون التدخل في حياتهم الشخصية، وجد أردوغان صحفيين من خصومه السياسيين يشهدون له بالإنجاز وتغيير أحوال البلدية التي كان الناس يعتبرون فسادها قدرا لا فكاك منه. لم يصل أردوغان إلى ذلك التحديد الحكيم للأولويات من فراغ، فقد بدأ أولى معاركه السياسية في عام ١٩٨٩ بخوض الانتخابات البلدية في حي باي أوغلو الشهير

بالعاهـرات والبارات، وخلال ذلك خاض معارك ضارية ليس فقط مـع المنافسـين له، بل مع قواعـد حزب الرفاه الـذي كان ينتمي إليه وقتهـا والذين اسـتفز بعضهـم من انفتاحه علـى المجتمع، «حتى إن بعض الأوسـاط الإسـلامية اتهمتـه بالكفر»، ووصـل الأمر إلى حد سـبه وتحقيـره واتهامه بأنـه «يسـتخدم العاهرات فـي الانتخابات» لمجـرد أنه قام بالسـماح لفتيات غير محجبـات بالتطوع للعمل في حملتـه الانتخابية. يـروي الكاتبان أن إمام مسـجد اتصل بأردوغان وأخـذ يعنفه ويقول له: «لاسـامحك الله.. انظر في أي قاع سـحيق ألقيـت بنا؟ مـاذا سـتقول لربك غدا يوم المحشـر؟ كيـف تجعلون هـؤلاء العاهـرات يوزعـن أوراق حزبنـا فـي حملتـك الانتخابية؟ مـاذا أقـول للجماعـة، وبـأي وجه سـأخرج إلى الشـارع بعـد هذه الفضيحة؟»، ورد عليه أردوغان بحسـم: «إنك تكيل الاتهامات دون علـم، عيب عليـك ذلك. هؤلاء الفتيات طالبـات جامعيات وكلهن في مرتبة أخواتنا، ستنكشف لك الحقيقة غدا، وعندها ستخجل مما قلت وتشـعر بالخزي والندم». يروي أردوغان أنه بعد أن خسر تلك الانتخابات بسـبب تزويرها جاءته فتاة غير محجبة من المتحمسـات له وهي تبكي بشـدة واتهمته بأنه اسـتجاب للضغوط المتشددة ولم يسـمح لهـن بالوقوف علـى صناديـق الانتخابات، وكانـت النتيجة أن الانتخابـات تم تزويرهـا عندما ذهب المشـرفون على الصناديق التابعـون لحـزب الرفاه إلى الصـلاة. وذهب أردوغـان وهو منفعل لكـي يهاجـم القاضـي الذي أشـرف على تزويـر الانتخابـات وهو

مخمـور، وتحـدث بينهما مواجهـة عاتية تم بعدهـا تحريك دعوى قضائيـة ضـد أردوغان ليذهـب إلى السـجن. ولم تكن تلـك المرة الأخيرة التي يسجن فيها، فقد كان على موعد مع السجن مرة أخرى بعـد أن حقـق كل تلك الإنجازات لإسـطنبول، وتحـول إلى ظاهرة تركيـة تقـض مضاجع أصحـاب المصالـح الراغبين فـي دوام نهب البلاد. وتلك قصة أخرى أحدثك عنها في الفصل القادم.

الشاطر رجب أردوغان!

كان ذلك في صيف ٢٠٠٦، كنت أتمشى ساعة العصاري في شوارع مدينة طرابزون التركية التي تسكن جبلا أخضر شديد الوعورة والجمال يطل على البحر الأسود الذي لم أفهمه قط وأظنني لن أفهمه على الإطلاق. كنت مشغولا بالبحث لساعات عن منطقة شعبية كتب عنها كاتبي المفضل التركي العظيم عزيز نيسين تفاصيل رائعة في كتابه (ذكريات من المنفى) والذي حكى فيه ذكريات نفيه في ستينيات القرن الماضي إلى تلك المدينة التي لولا شتاؤها القارس لطابت منفى اختياريا أبديا لكاتب.

أنهكني المشي ومحاولة العثور على مواطن طرابزوني يتحدث الإنجليزية ولو طشاشا، كان الوضع من حيث التواصل مع البشر كارثيا أكثر من إسطنبول وأنقرة وإزمير التي يمكن أن تجد فيها مواطنين أتراكا يتقنون الإنجليزية، وربما يكون من الأسهل هنا أن تصادف مواطنا تركيا يجيد العربية لأنه درس في الأزهر أو حفظ القرآن الكريم في مدارس (إمام ـ خطيب) الشهيرة. قررت

أن أستريح قليلا قبل مواصلة المشي، فدخلت إلى مقهى شعبي لطيف متسلحا بحفظي لأهم ثلاث كلمات في اللغة التركية بالنسبة إليَّ «تشاي - كاهوه سادة». بداخل المقهى وجدت جمعا غفيرا من الناس أغلبهم من كبار السن يتحلقون حول شاشة التلفزيون في المقهى لا لكي يتابعوا مباراة كرة أو مسلسلا تركيا، بل لكي يشاهدوا حدثا يعرضه التلفزيون على الهواء يتصدره رئيس الوزراء رجب طيب أردوغان الذي يتوسط عددا من ذوي البدلات الرسمية على منصة داخل قاعة كبيرة تمتلئ بمئات المواطنين، كان أردوغان يسحب أوراقا موجودة داخل كرة زجاجية كبيرة مليئة بقصاصات الأوراق، وكان عندما يقرأ ماهو مكتوب في القصاصة، تقطع كاميرات التلفزيون على ردود أفعال بعض المواطنين الجالسين في القاعة، لنرى أن بعضهم يبتهج بشدة ويحتضن من يبدو أنه ابنه أو بنته، بينما يغضب البعض الآخر ويشيح بيده أو يضرب كفا بكف فتطبطب عليه زوجته أو والده، خمنت أن ما يعرضه التلفزيون حفل خيري يقوم فيه أردوغان بسحب شقق من بتاعة المحافظة، فيبتهج من يحصل على شقة نموذج ٤٥ مترا، ويلعن حظه من يحصل على شقة نموذج ٢٢ مترا. لم أجد تفسيرا آخر للمشهد، لكنني فوجئت بالمقهى فجأة يرتج بصرخات الفرحة، ويقبل رواده الفرحون على رجل كبير ليحتضنوه ويقبلوه بحرارة، بينما تترقرق عينا الرجل بدموع الفرح. خلال ثوان أخذ شاب يعمل بالمقهى يطوف على الرواد جميعا بقطع من الملبن، عندما ترددت قليلا في أخذ قطعة من الملبن الذي سأموت عليه لكنني ممنوع منه، قال لي الشاب:

«كرم.. كرم»، فقد فهم أنني ظننته بائعا متجولا يبيع الملبن، كنت أعرف أن كلمة «كرم» بالتركية تعني نفس معناها بالعربية فأخذت قطعة الملبن، لكنني لم أفهم المشهد برمته إلا بعد ساعتين عندما عدت إلى الفندق لألتقي بمرشدي إلى منطقة البحر الأسود يورهان نصرت مدرس اللغة الإنجليزية في جامعة طرابزون، والذي لا يحب أردوغان هو الآخر مثل رفيقه في مهنة الإرشاد السياحي حسن بيه، لكن يورهان كان أهدأ في حدة مواقفه بحكم كونه أصغر سنا وأبعد عن الانتماء السياسي أو الإيديولوجي، ولذلك فقد شرح لي برغم اختلافه مع أردوغان أن ماكنت أشاهده لم يكن حدثا عاديا، بل كان واحدا من تجليات الشاطر حقا وصدقا رجب طيب أردوغان وأفكاره الذكية لإصلاح الواقع التركي الاجتماعي الذي كان قبل توليه الحكم فاسدا إلى درجة لا تتخير أبدا عن فساد بلادنا المحمية بالحرامية.

الحكاية وما فيها أن ماكنت أشاهده في المقهى الطرابزوني هو وقائع القرعة السنوية التي تجري كل صيف لتوزيع المعلمين حديثي التخرج في كليات التربية على مدارس تركيا التي لعلك تعلم أنها بلد شاسع المساحة مترامي الأطراف، وما يميزها عن بلادنا أن السكان وهم قريبون منا في العدد المليوني الضخم لا يتكأكأون على روحهم في شريط عمراني ضيق حول نهر النيل، فالطبيعة هناك خلابة والماء وفير أينما حللت وارتحلت، جبت تركيا من شمالها إلى جنوبها ومن غربها إلى وسطها (وحده الشرق التركي الذي تأخر ارتحالي فيه حتى يهدأ قليلا)، ولم أترك منطقة

مررت عليها إلا وصادفت نهرا أو بحيرة أو نبعا أو شلالا أو جدولا أو عين ماء أو غديرا، بل إنني لم أتعلم الفرق بين كل هذه الأسماء التي كنت أقرؤها دائما إلا في تركيا عندما رأيتها جميعا رأي العين، ولذلك وبسبب توفر الماء الذي جعل الله منه كل شيء حيا، فإنك عندما تسير في تركيا لن تفوت ربع ساعة على الأكثر خلال سيرك بالسيارة إلا ورأيت مدينة صغيرة أو قرية كبيرة، من فضلك عندما تسمع كلمة قرية شيل من دماغك الشكل الذي تعرفه عن قرانا. نعم، هناك في القرى التركية مزارع وطيور وحيوانات وحياة ريفية هادئة وزمن يمضي برتابة وملابس بسيطة غير متكلفة وذباب شرس ونساء ساحرات الجمال شديدات الخجل وطعام لن تنسى طعمه ماحييت، لكن هناك أيضا شوارع مرصوفة ومدارس ومراكز صحية متميزة وخدمات كاملة من مجاميعه ومحالّ تجعل الذهاب إلى المدينة مقصورا على الكماليات والترفيه فقط لا غير. سمعت أن ذلك يقل كلما اتجهت شرقا، لكنني للأمانة في كل ما عبرت به من مساحات شاسعة لم أر إلا صورة مشرقة للقرية أتمنى أن أراها في مدننا الكبرى يدينا ويديك طولة العمر والبال.

شوف يا سيدي، هذا العدد الضخم من المدن والقرى التركية والذي يزيد على الستين ألف قرية، يوجد به عدد كبير من المدارس يحتاج كل عام إلى آلاف المدرسين حديثي التخرج الذين ينص القانون على ضرورة أن يؤدوا خدمتهم الإلزامية في مدارس لا يجب أن تكون بالضرورة في المنطقة التي ينتمون إليها، ولذلك يمكن أن يكون المدرس متخرجا في أقصى الغرب ويخدم في

أقصى الشرق إذا أتى نصيبه هكذا طبقا للقرعة السنوية، وبرغم أن الحكومة التركية منذ زمن أبي الأتراك مصطفى كمال تولي اهتماما كبيرا بالتعليم ومرتبات المعلمين وكرامتهم، فإن بُعد المسافة يجعل من المستحيل على المعلم الشاب أن يعود لرؤية أهله في الإجازات فينفق كل ما يكسبه، ولا أن يظل على سفر لمدة يومين متواليين لكي يصل إلى محافظته الأم. لذلك وعلى مدى سنوات طويلة جدا كانت تلك القرعة بابا واسعا للفساد يدفع فيه الناس الشيء الفلاني من أجل أن تأتي القرعة كما يحبون لأولادهم، ألا يذكرك هذا الكلام بحكاية الكمبيوتر الذي دخل إلى بلادنا ففسدت أخلاقه وباظت ذمته ونسي كل ما تعلمه في بلاد الفرنجة من أخلاق ومبادئ؟ كان هذا هو الوضع في تركيا لسنوات حتى جاء أردوغان الذي قرر أن يرحم الأسر التركية من مافيا الفساد في إدارات التعليم بحل يبدو سحريا لكنه في غاية البساطة والعمق معا، حينما جعل يوم القرعة السنوية لاختيار المدرسين يوما شديد الخصوصية يذاع على الهواء مباشرة في محطات التلفزيون المحلية ويحضره هو بنفسه ومعه كبار مساعديه، وتتم دعوة من يرغب من أهالي الخريجين لحضور الاحتفال في قاعة المؤتمرات التي تتم فيها القرعة، وتبدأ في البداية عملية رمزية يتم فيها سحب أسماء موجودة بداخل الكرة التي حدثتك عنها، فيفرح من جاء نصيبه في التعيين داخل منطقته أو قريبا منها، وييئس من شاء حظه العثر أن يعين مثلا في مناطق نائية أو في مدن بها صراعات مسلحة بين الحكومة ومتمردي حزب العمال الكردستاني، ثم تستمر عملية السحب على الملأ، فلا يصبح

من حق أحد أن يشكك في وجود تحيز أو فساد، وأما من وجد في نفسه غصة من نصيبه فليس عليه إلا أن يكتمها ويبدأ في التحضير لمشواره الطويل.

دعني أقل لك إنه من أجل تلك المشاوير الطويلة في السفر والتنقل التي يقطعها الأتراك داخل بلادهم، قام أردوغان بعمل فكرة عبقرية لتهوين وعثاء السفر على الأتراك، انبهرت عندما حكى لي يورهان عنها. شوف يا سيدي، عندما درس الشاطر أردوغان ميزانية تركيا وجد أنها تنفق مبالغ ضخمة على شق الطرق بين الجبال الوعرة لتهوين السفر على الناس وتقليل مدته، وما أدراك بكم الملايين التي تتسرب إلى جيوب المسئولين والمقاولين ورجال الأعمال من وراء مشاريع ضخمة كهذه مهما صرفت عليها، فإنها لن تحل لك أبدا مشكلة تنقل الناس بين ربوع تركيا والتي أنتجت آثارا اجتماعية خطيرة أدت لتفكك العديد من الأسر التركية التي يفخر الأتراك بتماسكها. وبمنتهى الذكاء قرر أردوغان أن يوفر جزءا كبيرا من ميزانية شق الطرق لعدة سنوات من أجل دعم شركات الطيران الداخلية، ليصل سعر تذكرة الطيران بين مدينة وأخرى إلى أرقام قياسية تنافس سعر تذكرة الأتوبيس أو تفوقه بنسبة بسيطة، ولكن مع ميزة عبقرية، وهي أن المدينة التي كنت تسافر إليها بالأتوبيس أو القطار على مدى يوم كامل أصبحت تصل إليها في ساعة، ولذلك انتعشت حركة الطيران الداخلية، وأصبح الناس لا يجدون غضاضة في قبول وظيفة في مدينة بعيدة طالما أصبحوا قادرين على العودة

إلى أسرهم في الإجازة الأسبوعية، وتغير حال البلاد اجتماعيا واقتصاديا بفضل قرار بسيط وذكي ومبدع.

لا أعتقد أن من رأيتهم يومها من الجالسين في المقهى الطرابزوني وغيره من المقاهي المجاورة يتابعون وقائع القرعة السنوية، كان لديهم جميعا أبناء خريجون ينتظرون حظهم في التعيين، لكنني رأيتهم جميعا متلهفين للمتابعة، ليس لأن الأمر فقط به مشاعر درامية لطيفة، بل لأن الإنسان يحب أن يرى سلوكا متحضرا ديمقراطيا في بلاده حتى ولو لم يكن يمسه هو شخصيا، هم في نظري لم يكونوا يشاهدون معنى يخص أفرادا بعينهم، حتى ولو كان من بينهم شريكهم في المقهى، بل كانوا يشاهدون معنى يخص وطنا بأكمله، قرر أن ينضف نفسه ويطبق القانون على الكل دون عك ووساخة. نعم، أقولها لك هكذا على بلاطة، فهكذا هي المسألة في رأيي، هناك أوطان تحب العك والوساخة، ولا ترى غضاضة في أن تعيش وسطها، بل وتشعر بالانزعاج إذا طالبها البعض في أن تخرج نفسها مما هي فيه، ونحمد الله أن ثورة الخامس والعشرين من يناير أثبتت لنا أن هناك ملايين الأحرار بيننا لا يحبون أن يعيشوا في العك والوساخة، ولديهم عزم وتصميم على أن تعيش هذه البلاد في أحسن حال، ولذلك فهم الآن يبحثون بشغف في مشوار الانتخابات الرئاسية عن شخص يضعون أيديهم في يده لكي يكون رمزا لرغباتهم في انتشال مصر مما هي فيه، تماما كما فعل الأتراك عندما التفوا حول أردوغان الذي لم يتحدث أحد عنه أنصاره بوصفه ملهما من السماء، ولم

يشبهه أحد بيوسف الصديق أو بهارون عليه السلام، وأردوغان نفسه وهو الإسلامي العتيد في تجربته لم يستخدم الدين كسلاح سياسي وهو يقدم للناس هذه الأفكار البسيطة التي غيرت وجه حياتهم، ولم يتعامل مع الأتراك بوصفهم أناسا ضالين ينتظرون أن يدخلهم إلى الجنة أو يخرجهم من الضلال، ولم يكرر أخطاء من سبقه من أساتذته في التيار الإسلامي الذين عطلهم كثيرا ضيق أفقهم وعنادهم، لأنه ببساطة استمد هذه الأفكار المبدعة من بسطاء تركيا وفقرائها خلال تجربة السجن التي تعرض لها بعد أن وصل إلى قمة مجده في رئاسة بلدية إسطنبول والتي هزت تركيا بأسرها، وجعلت أعداءه من السياسيين أصحاب المصالح يتآمرون لسجنه بسبب أبيات شعرية قالها في لقاء جماهيري، ليدخل أردوغان إلى السجن ويجد نفسه في قلب الواقع التركي المليء بالظلم والفساد والتفسخ الاجتماعي، فيكون سجنه نعمة لتركيا، وتتحول علاقاته برفاق السجن إلى تجارب ملهمة تعلم منها الكثير فيما بعد حينما أصبح «باشبكان» تركيا، ولكن تلك قصة أخرى.

سنحيا.. أتراكا

أصبح رئيس الوزراء التركي رجب طيب أردوغان ملطشة لكل السياسيين في مصر بلا استثناء، كلما أحب أنصار مرشح أن يرفعوه إلى عنان السماء شبهوه بأردوغان، حتى لو كان مجرد إستبن يفتقر إلى العمق والكاريزما ويردد كالببغاء كلاما كتبه له آخرون ودربه على الحديث عنه آخرون، صحيح أن ذلك التلقين أمر يحدث في أغلب الدول الديمقراطية، لكنه على الأقل لم يكن ماحدث لأردوغان الذي ستعرف عندما تقرأ سيرته وتتأملها أنه لم يصل إلى مجده هذا بفضل تيار سياسي منظم قام بتلميعه وصرف الملايين لفرضه على الساحة، ولم يصبح بطلا قوميا لدى فقراء الأتراك لأنه فقط يجيد الخطابة والتلاعب بالألفاظ، ولم يصبح خصما مرهقا ومربكا للكثير من النخب العلمانية لمجرد أنه يستند إلى تيار سياسي يرفع الشعارات الإسلامية، بل أصبح على ماهو عليه كمحصلة طبيعية لنضال رائع خاضه ليس فقط ضد خصومه، بل ضد الذين كانوا ينتمون معه إلى نفس التيار لكنهم اختاروا الجمود

بوصفه الثبات على المبادئ وفضلوا القطيعة مع المخالفين في الرأي متقربين بذلك إلى الله بوصفه ولاء وبراء، والأهم أنه ناضل ضد نفسه التي كان يمكن أن تنكسر أو تنهزم بفعل ما رآه من ظلم وإجحاف أوصلاه إلى السجن لمدة أربعة أشهر كضريبة لنجاحه في تحويل إسطنبول من مدينة منهكة قذرة يائسة إلى جنة تفخر بها تركيا كلها.

في يوم الجمعة الموافق ٢٦ مارس ١٩٩٩ ذهب أردوغان قبل أن يسلم نفسه إلى سجن بينار حصار لكي يشارك في مراسم تشيع صديق له كان بطل تركيا في المصارعة وكان يقوم تطوعا بحراسة أردوغان خلال معاركه الانتخابية المتوالية التي بدأت في عام ٨٩، ففوجئ بعشرات الآلاف يحتشدون حول المسجد لكي يصحبوه إلى باب السجن في مشهد تاريخي أربك الدولة كلها. كان اليوم التالي مباشرة هو يوم عيد الأضحى، وكان بمقدور أردوغان أن يستغل المناسبة لكي يتلاعب بمشاعر أنصاره الذين يعلمون أنه مظلوم حقا وصدقا، لأنه يحاكم بسبب ترديد أبيات شعرية قالها شاعر تركي يشكل جزءا من التراث التركي ولم تكن ممنوعة من التداول أصلا، لكنه لم يفعل ذلك ولم يشعل فتنة في البلاد ولم يفرض نفسه على الناس بالبلطجة والتلاعب بالمشاعر وبالعواطف الدينية، ولم يدعُ أنصاره وهم بالآلاف لكي يعتصموا من أجله أو يشعلوا البلاد من أجل إخراجه من السجن الذي دخله ظلما، ولم يطلب من الأتراك أن يقوموا بإفشال أو مقاطعة الانتخابات النيابية التي كانت ستقام بعدها بشهر، بل ارتجل كلمة رائعة ستجد

نصها الجميل في كتاب (أردوغان قصة زعيم) للمؤلفين حسين بوسلي وعمر أوزباي وترجمة د.طارق عبد الجليل، شعر البعض بالقلق عندما وجدوا أنه حرص في مطلعها على أن يحيي مسلمي كوسوفا الذين كانوا يعانون من أيام عصيبة وقتها، وأن يحيي شباب الطيارين الأتراك الذين شاركوا في الطلعات الجوية ضد الصرب، وعندما التهبت مشاعر الجماهير الذين كانوا يتابعون كلمته في الشارع أو من خلال الأثير، لم يستغل تلك الحماسة لصالحه، بل قال في كلمته الملهمة التي أعتقد أنها يمكن أن تشكل مفتاحا لفهم شخصية أردوغان ولكل ما حققه في تركيا بعد خروجه من السجن:

«إنني لست حانقا على دولتنا أو مستاء منها، فمعركتي الحقيقية هي إزالة تلك البقع السوداء التي تجعل المواطنين مستائين أو حانقين من بلدنا، وإنني خلال الأشهر الأربعة التي سأقضيها في السجن سأنشغل بتقييم المشروعات التي قمنا بها حتى هذه اللحظة، والتي تشترك في هدف واحد وهو أن نصل بوطننا وأمتنا في مجالات الاقتصاد والصحة والتعليم والعلم والإدارة المحلية والرياضة وحقوق الإنسان والتكنولوجيا والدفاع والعلاقات الدولية ـ لاحظ الترتيب من فضلك ـ بما يليق بمعدلات الألفية الثالثة. لذلك أريد أن أرسل رسالة إلى كل أطفالنا وشبابنا في مراحل التعليم المختلفة من الابتدائية إلى الجامعة. إن تركيا سوف تصبح بحلول عام ٢٠٠٠ بلدكم الجميل والمستنير، إلا أن هذا يقتضي منا جميعا العمل المتواصل، وإنني أعدكم بالأصالة عن نفسي بأنني سوف أعمل كثيرا بداخل السجن كما كنت بالخارج، وأنتم فلتجتهدوا جيدا في

مدارسكم، ولتمنوا ما شئتم، ولكن عليكم الاجتهاد بالقدر الذي يوصلكم في النهاية إلى أحلامكم هذه. اجتهدوا جيدا لتكونوا مهندسين جيدين وأطباء أكفاء ومعلمين مهرة وإداريين محنكين وحقوقيين عادلين. نعم حقوقيين عادلين، وأكررها ثانية: حقوقيين أكفاء، فأنا الآن ذاهب لأداء واجبي، وأنتم فلتؤدوا واجباتكم جيدا».

ثم بعد أن استعرض المدن التي زارها خلال الشهر الأخير قبل سجنه مباشرة لكي يتهيأ لخوض الانتخابات قال في كلمات رائعة مليئة بالأمل والحماس: «لقد وجدت أن شعبنا يعرف كل شيء أكثر منا جميعا من خلال إرثه التاريخي الثري وبفطنته وفراسته، بل ويُقيِّم الأمور بصورة صحيحة، ولذلك ماينبغي عمله ليس توجيه رسالة للشعب، إنما علينا نحن أن نفهم جيدا الرسائل التي أرسلها إلينا الشعب»، قائلا لأنصاره بأن الذين لن يفهموا رسائل الشعب سيبدأون في ذلك منذ صبيحة يوم الانتخابات القادمة وسيعانون من صدمة كبيرة لأنهم لم يعيروا اهتماما للشعب، موصيا أنصاره بألا يصطدموا بأنصار أي تيار سياسي بل أن يكونوا هادئين ووقورين، وأن يعبروا عن امتعاضهم فقط داخل صناديق الاقتراع، طالبا من الناس أن يسامحوه إذا كان قد أدمى قلوبهم وأن لا ينسوه من دعائهم، قبل أن يختم خطابه بأنشودة تركية تقول: «مضينا معا في هذه الطرق.. وبللنا ماء المطر.. والآن فكل ما سمعته في الأغاني.. كل شيء يذكرني بك»، ثم تمنى لهم عيدا سعيدا، ودخل إلى باب السجن هو ورفيقاه المحكومان في القضية معه.

في داخل السجن وضع أردوغان لنفسه قواعد صارمة في المبيت واليقظة والعمل والعبادة والطعام والرياضة وتعلم الإنجليزية والرد على خطابات الأتراك بنفسه مهما بلغ عددها، وزاره خلال فترة سجنه القصيرة ثلاثون ألف مواطن تركي قابلهم جميعا في مجموعات جعلت المنطقة المحيطة بالسجن مزدهرة اقتصاديا بل وجعلتها محط أنظار الراغبين في مقابلة مسئولي البلديات التابعة له الآتين لزيارته، ثم قام أردوغان بتحويل السجن إلى خلية عمل لدراسة مشكلات المجتمع التركي من خلال علاقات وثيقة تعرف فيها على المساجين القادمين من كل أنحاء تركيا أيا كانت جرائمهم، ربما لأنه أدرك أنه ليس هناك مكان يمكن أن يصلح لدراسة أحوال مجتمع بدقة أفضل من السجن، ولذلك حرص أردوغان على كسب قلوب الجميع من خلال تفاصيل صغيرة منها مثلا حرصه على الاشتراك مع المساجين في طعامهم البسيط العادي، وتوزيع مايأتيه من أطعمة فاخرة عليهم، وحرصه على إنشاء مكتبة كبيرة بداخل السجن، وتوزيع الملابس والمساعدات على فقراء المساجين، ولم يكن يعلم أن ماكان يفعله بداخل السجن كان سببا في فشل مخطط لقتله كان يدبره تنظيم الأرغاناكون الذي تم اكتشافه في نهاية عام ٢٠٠٧، حيث اعترف شاهد سري بتجنيد سجينين اسمهما رمزي وفاضل لتنفيذ الاغتيال لكنهما تراجعا عن ذلك في آخر لحظة. وعندما حل اليوم الأخير لأردوغان في السجن جاءه تحذير من النيابة، أن هناك محاولة لقتله ستتم فور خروجه من السجن، وأن عليه أن يرتدي سترة واقية من الرصاص وتم نصحه بالبقاء في

السجن، لكنه أصر على الخروج معلنا تحمله كل العواقب ومكتفيا بصلاة ركعتي شكر قال إنهما سيكونان سترته الواقية، وعندما جاء ليخرج اقترب منه أحد رفاقه في السجن وقال له: «ياريس الحمد لله لقد انتهى الأمر وستستمر في طريقك وكأن شيئا لم يحدث، وإن شاء الله سوف تكون ذات يوم باشبكان (رئيس وزراء) لهذه الدولة، لكننا آنذاك لن نكون بجانبك»، فنظر إليه أردوغان مبتسما وقال له: «اسمع مني يا مصطفى إذا قُدِّر لي أن أكون رئيس وزراء تركيا ذات يوم، فأول شخص سأتحدث إليه سيكون أنت».

لا أدري إذا كان هناك كتاب يحكي بالتفصيل طبيعة الأفكار التي كانت تراود عقل أردوغان في أثناء ليالي السجن، ولا أين هي تلك الانطباعات التي يقال إنه كان يسجلها كل يوم، والتي أتمنى أن تكون متاحة باللغة العربية لشبابنا الراغب في العمل السياسي لكي يستفيد منها، لكنني أزعم أنه كان على رأس تلك الأفكار التي آمن بها في سجنه هي إدراكه لعدم جدوى الاستمرار في العمل السياسي ضمن التيار السياسي ذي المرجعية الإسلامية الذي نشأ وعاش طيلة عمره السياسي فيه والذي كان يصطدم كل فترة بالدولة العلمانية لتقوم بقمعه وحل تشكيلاته السياسية واعتقال قادته والتضييق على قواعده، ولذلك أتصور أن أردوغان في ليلة من ليالي السجن قرر أن لا ينتظر تغير الأوضاع بل أن يصنع البديل بنفسه، ولذلك فقد كانت مهمته الأبرز بعد خروجه من السجن هو صنع حزب سياسي جديد يكون «منفتحا على كل الآراء ويقبل عضوية أي شخص من الشعب مهما كانت مكانته أو اهتماماته،

علـى أن يتصـف فقط بنزاهـة الفكر ليكون ذلك الحـزب قادرا على إدارة الدولة التركية»، وخاض أردوغان من أجل تحقيق ذلك الحلم معـارك سياسـية ضارية مع رفـاق حزبه الذين اتهمـه بعضهم بخيانة كفاحهـم المشـترك، لكنـه لم يبال بمـا قيل حول انشـقاقه عن درب أسـتاذه نجم الدين أربكان مقدما مسـتقبل تركيا على ماضيه المجيد مع أستاذه ومعلمه، مواصلا العمل السياسي الشاق من أجل تأسيس حـزب جديـد قرر أنْ يطلق عليه اسـم العدالة والتنميـة (آك بارتي)، وهو اسـم لم يصل إليه بمفرده بل بعد عمل مؤسـسـي منهجي قام به فريق عمل متكامل معظمه من الشـباب.

ومع أن أردوغان كان يعلم أنه بحكم القانون المتعسـف سيكون محرومـا من قيادة ذلك الحزب، لكنه أنكر ذاته ولم يكتف بالكمون خلـف شاشـة الكمبيوتر ليكتب كلامـا مكررا معادا ملـه الناس، بل نزل إلى الشـارع متحمـلا مخاطر الاغتيال والاعتـداء، وذهب دون مبالغـة إلـى كل محافظـات تركيـا، موافقـا علـى أن يـرأس الحزب علـى الـورق آخرون غيره، ليواصـل في نفس الوقت نضـالا قانونيا مريرا من أجل اسـتعادة حقه في العمل السـياسـي، وعندما تم إعلان الحزب رسـميا في ١٤ أغسـطس عام ٢٠٠١، ألقـى أردوغان كلمة رائعـة حفلـت بفقـرات ملهمة من نوعية «سـيكتب اليـوم في تاريخ السـياسـة التركية أن هذا اليوم هو اليوم الذي سـقط فيه حكم الأقلية القائـدة، وحـل مفهـوم جديد لقيـادة تمثل العقل الجمعـي بدلا من قيـادة اعتمـدت علـى الاحتـكار، وتأسـس نمـوذج لتكتل سياسـي جديـد تماما وشـفاف لن يكـون فيه مـكان لدكتاتوريـة القائد، لأننا

لا نؤمـن بأن الفترة الانتقاليـة التي تعرض فيها الشـعب للظلم على مدار سـنوات هي قدرنـا الوحيد والذي لا يتغيـر، ولأنه ليس مقدرا على الأمة الكبيرة أن تدار بنظام الديمقراطية من الطبقة الثالثة وليس حتى من الطبقة الثانية، وليس مقدرا على الدولة أن تتلقى توبيخات مـن الدول الأخرى بسـبب الانتهاكات الحقوقيـة ولا أن تنتظر مثل الشـحاذ على أبـواب المؤسسـات التمويليـة الدولية فـي حين أنها تمتلـك ثـروات طبيعية طائلـة، وليس مقدرا على الأمـة العظيمة أن تتابـع علـى صفحـات الصحـف وشاشـات التلفاز مشـاهد لأناس يعيشـون تحت خط الفقر، في أنها تحـاط بالبحار من ثلاث جهات ولديها مئات الآلاف من الكيلومترات من الأراضي الزراعية ولديها عدد سكان يبلغ ٦٥ مليون نسمة يعد لوحده مصدرا ذاتيا يمكن هذه الأمة من أن تعيش في رفاهية وسـعادة، بدلا من أن يحولها شـخص إلى جمهورية من جمهوريات الموز المثيرة للشـفقة والسـخرية في آن واحد. إن تركيا تنزلق الآن للأسفل بكل مؤسسـاتها. ولقد تعرفت منذ عدة أشـهر علـى أحد المغتربين الذين عاشـوا لثلاثين سـنة في بلجيـكا وهو من مدينة قونية، وقال لـي: إن بلجيكا أصغر من حيث المسـاحة من قونية، ولكن بها عددا من أهالي قونية يعملون وكأنهم سينون قونية أخرى هناك، فمتى ستنتهي غربتنا هذه التي بدأناها من أجـل لقمة العيش، وهانحن حزب العدالة والتنمية نأتي لنقول لهذه الغربة: كفى».

لـم تمر كلمات أردوغـان التاريخية الصادقة والجريئة بسـهولة، فقـد تحرك النظام الأتاتوركي القديم لحمايـة مصالحه التي يهددها

حزب أردوغان الجديد وقام بمحاربته بشراسة وصلت إلى حد أن يطالب المدعي العام بإعدامه، كأنه هو الذي تسبب في كل المخازي الاقتصادية التي تتردى فيها البلاد والتي أدت إلى وصول نسبة التضخم إلى ٥٠ بالمائة، وكأنه هو الذي أحدث التخبط السياسي الذي قامت به الأحزاب الواصلة إلى الحكم والذي أدى بأحدها إلى أخذ قرار متهور بإطلاق ٦٠ ألف مسجون جنائي تسببوا بعد خروجهم في زيادة نسبة الجريمة ودخول البلاد في حالة انفلات أمني رهيبة، كان النظام السياسي القديم المحمي من العسكر يتخبط ويتهاوى، بينما كان أردوغان يواصل العمل الدءوب في الشارع بعيدا عن الحنجورية الثورية والمزايدات الطنانة وصيحات جماعة الأمر بالإحباط، مواصلا تأسيس تشكيلات حزبه الجديد في جميع المدن والقرى، ولذلك عندما وصلت الأزمة السياسية في البلاد إلى ذروتها وتم إعلان موعد لانتخابات نيابية مبكرة في نوفمبر ٢٠٠٢ كان أردوغان مستعدا بحزب قوي قابل للمنافسة لا يتواجد فقط في أوساط النخب المتعالية على الشعب والتي تظن أنها تحتكر الحقيقة، بل كان موجودا في كل قرية تركية ليس باستخدام رصيده من الشعارات، بل رصيده من الإنجازات التي اكتسبها في العمل المحلي، وليس بالمتاجرة بسجنه في برامج التوك شو، بل بمصافحة الناس من كل الطبقات فردا فردا ومعرفة همومهم وقصصهم وأحلامهم وكوابيسهم، والتركيز على جذب رجال الأعمال الشباب جنبا إلى جنب مع الفقراء والمطحونين. ولذلك لم يبال بحقيقة أنه ممنوع من خوض الانتخابات، ولا بالحملات

الإعلاميـة الشرسـة التي كانت تخيف منه الأتـراك، بل قام مع رفيقه عبـد اللـه غـول بتقسـيم العمل بينهمـا، بحيـث يتولى غـول العمل السياسـي في مقر الحزب فـي أنقرة، بينما يقـوم أردوغان بالطواف على كل أرجاء تركيا دون حاجة إلى ملقن يعلمه مايقوله.

فـي نفس الوقت الـذي كان فيه فريق ثالث برئاسـة علي باباجان يقـوم بعمـل مباحثات مع خبـراء الاقتصـاد داخل تركيـا وخارجها لإعداد خطة اقتصادية محكمة يتم تنفيذها إذا حصل الحزب الجديد علـى الأغلبية التي كان يتوقعها، وهي الخطـة التي ظل الحزب يعد لهـا منـذ بداية التفكير فيه قبل عامين، وتم فصـل الفريق العامل فيها عـن كل تفاصيـل العمـل السياسـي والحزبـي ليتفرغـوا لإعدادهـا بالكامـل، ولذلك عندما اكتسـح الحزب الانتخابات بشـكل مذهل وغيـر مسـبوق في تاريـخ تركيا، وبعـد أن تم تكليف عبـد الله غول بتشـكيل الحكومـة رقم ٥٨ فـي تاريخ تركيا، لم يضـع الحزب وقتا وبـدأ في تنفيـذ خطته التي كانت واقعية وذكيـة ومعدة جيدا وتعتمد علـى التفاصيل الصغيرة التي تحدث فرقا هائلا في حياة الأتراك في وقت قصير ـ شـرحت لك بعضها في حلقة سابقة ـ ولذلك تمكنت الخطة من تحقيق فارق ضخم في وقت قياسـي، ليس لأنها سـحرية بـل لأنها كانت بسـيطة وصادقـة، ولأن الناس شـعروا بصدقها فقد تجاوبـوا معهـا وتحملوا تأجيـل مطالبهـم الفئوية المشـروعة، ولم يحـدث ذلك من فراغ بل لأنهـم عرفوا مثلا أن أردوغان في اجتماع مبكـر مـع مجلـس إدارة حزبه وقبـل أن يتم تكليف الحزب رسـميا بالحكومة، اكتشـف أن مسـاعديه الاقتصـاديـن قاموا بحذف بند كان

قد وضعه في وعود الحزب وهو استمرار دعم المازوت، قائلين له إنهم سيضطرون لذلك إلى التخلي عن وعدهم إلى حين، فصرخ في وجه كبيرهم قائلا له: «متى تعلمت السياسة بهذه السرعة؟ إذا كنتم ستعملون على خداعي أنا والتحكم بي، فمن يعلم ما الذي سوف تفعلونه بالشعب؟» ليتلقى العاملون معه درسا قاسيا ويتجنبوا العبث بأي بند فيما وعد به الحزب شعب تركيا.

في أثناء ذلك الصراع حامي الوطيس على كل الجبهات السياسية والإعلامية والقانونية، لم تتملك أردوغان المرارة لأنه برغم كونه مؤسس الحزب الذي فاز في الانتخابات وشكل الحكومة، فإنه ظل محروما بحكم الدستور من أن يكون نائبا برلمانيا أو وجها وزاريا، لكنه بكل ذكاء أدرك أن المهم أن يثبت نجاح حزبه أولا، قبل أن يخوض نضالا سياسيا بالتعاون مع حزب حليف لكي يغير المادة الدستورية التي تحظر عليه العمل السياسي، وبالفعل تم تغيير جملة (الأفعال الإيديولوجية والتحريضية) من المادة ٧٦ برضه لتوضع مكانها جملة (الأفعال الإرهابية)، ويصبح من حق أردوغان الترشح في مدينة سيرت التي بطلت فيها الانتخابات لأسباب إدارية. وبرغم أنه كان يمكن أن يفوز دون أن يذهب إلى تلك المدينة خصوصا بعد تحذيره من محاولة اغتيال قد يتعرض لها هناك، فإنه ذهب وكان أول ما فعله فور اعتلاء المنصة أمام الجماهير الحاشدة أن خلع السترة الواقية من الرصاص وألقاها أمام الناس، ونجح أردوغان بنسبة ٨٥ في المائة في الانتخابات، وكانت المفارقة التاريخية أن تلك المدينة كانت هي نفسها التي ألقى فيها أردوغان أبيات الشعر

التي تم سجنه بسببها، وعلى الفور تقدمت حكومة عبد الله غول باستقالتها إلى رئيس الجمهورية ليتم تشكيل الحكومة في نفس اليوم برئاسة أردوغان الذي كان أول ما فعله عندما دخل مكتبه أن طلب من الجميع إخلاء مكتبه لكي يختلي بنفسه ويشكر الله على فضله عليه، وقبل أن يغادر الجميع التفت إلى شخص بعينه قائلا له: «ابق أنت هنا»، ولم يكن ذلك الشخص سوى رفيقه في السجن مصطفى غوندوغان.

وأن ليس للإنسان إلا ما سعى. صدق الله العظيم.

بين إسطنبول والقاهرة ٢٠١٢

لقاء مع حاخامية!

سألتني صحفية شابة: هل صحيح أنك قاطعت حفل خطاب الرئيس الأمريكي باراك أوباما الذي ألقاه في جامعة القاهرة بسبب وجود السفير الإسرائيلي وعدد من الشخصيات الإسرائيلية ضمن الحضور؟ للحظات هزتني نشوة النضال المجاني وهممت أن أترك لعيالي بعضا من الفخار الوطني، لكنني تذكرت أن ذلك الفخار سينكسر فور نشر كلامي وإرسال منظمي الحفل تكذيبا يفيد أنهم لم يعبروني أساسا. قررت أن أرفع شعار «الصدق منجة» وقلت لها إنني ربما كنت الكاتب الوحيد الذي لم توجه له الدعوة لحضور الحفل، إذ يبدو أن كمبيوتر الرئاسة والقاعدين عليه خلطوا بيني وبين الناشط الطلابي بلال دياب الذي وقف ليهتف في نفس القاعة بوجه الدكتور أحمد نظيف: «مصر حزينة يا ريس»، وربما ظنوا أنني سأحذو حذوه وأنهض لأهتف بكلمة قبيحة بالإنجليزي في وجه أوباما، أو أني سأحرضه على تغيير خط سيره المرسوم له من قبل الرئاسة لكي يريه مصر نظيفة براقة غير مزدحمة وغير مكتئبة

والذهـاب مثلا لمنطقة «أبـو أتاتة» الواقعة قريبا من أسـوار الجامعة ليرى حزن مصر المباركة على أصوله.

قالت لي الصحفية: هل التجاهل ده زعلك؟، قلت لها: بالعكس لقـد شـاهدت الخطاب مـن على متن كنبتـي وكأني خليفة عباسـي تتراص أمامه أطباق الشيبسـي واللب الأبيض والسـوداني والخوخ السـكري ولـم يكن ينقصني سـوى بعض الفالوذج واللوذج لتكتمل الرفاهية، (كنت للأمانة أكذب عليها كما أفعل كلما سـألني أحد عن سر استبعادي من مؤتمر أو برنامج أو حفل أو ندوة، فأظهر أنني لريب الدهر لا أتضعضع، بينما أكون بداخلي حزينا لأنني لا أعتقد أن أحدا سـويا يمكن أن يتصالح مع شعور الآخرين بأنه خطر داهم). لم أقل مـا قلـت له لك الآن بين القوسـين للصحفية لكـي لا تفهمني خطأ، وفضلـت أن تفهمنـي أنت خطـأ. على أي حال، جاء سـؤالها التالي ليتضح أن الأسئلة السـابقة لم تكن سوى فخ يمهد للسؤال الأم الذي تسـعى إليه: «لو فرضـنا أنـك حضرت ودعيت إلـى اللقاء الصحفي مع أوباما والذي دعي إليه الأستاذان فهمي هويدي ومجدي الجلاد واكتشفت أن هناك صحفيا إسرائيليا مشتركا فيه، هل كنـت ستقاطعه مثلمـا فعل الأسـتاذ فهمي الذي أعلن تلك المقاطعة، أم سـتحضره مثلما فعل الأسـتاذ مجـدي؟». فكرت أن أتبع سياسـة «أنا لي رب، ولمجـدي الجلاد رب يحميه»، وأطلب حذف السـؤال الذي تلقيته في عدة إيميلات. سـألتني: لماذا أستمر بعد ما حدث في الكتابة في المصـري اليـوم وأنـا المعادي للتطبيـع؟ قررت أن أوفـر رأيي لكي أكتبـه بإحـكام، وقلـت للصحفية إنها سـتقرؤه مكتوبـا لكي أضمن

عدم اجتزائه كما يحدث معي ومع غيري. كتمت زعلها وقالت لي: «طيب في كلمة واحدة: كنت هتعمل زي أستاذ فهمي ولا أستاذ مجدي؟»، فقلت لها: «الشبكة بتقطع»، وأقفلت السكة والتلفون: فهمي نظمي رسمي مجدي.

لم أكن أهرب من السؤال، كنت فقط ضجرا من تكرار توجيهه لي عمال على بطال، كنت عقب الضجة التي حدثت قد حكيت لأستاذنا الكبير فهمي هويدي الذي أفخر بصداقته أنني كلما سألني أحد عن رأيي في ما حدث، أخذت أدافع عن موقف مجدي الجلاد عن قناعة، فيضجر من أحدثه ويسألني ذلك السؤال الاختزالي عما كنت سأفعله شخصيا، فأجيب عليه صادقا: «هاعمل زي فهمي هويدي وأروح بيتنا على طول». بعدها عندما سألني مجدي الجلاد عن رأيي كدت أقول له: «كنت هاعمل زيك طبعا» لكي أريح دماغي، لكنني راعيت ضميري وأعدت عليه ما قلته للأستاذ فهمي بالحرف، وخلاصته أنني لو حضرت الحفل ككاتب مستقل مثل الأستاذ فهمي لكنت سأقاطع اللقاء الصحفي برغم حبي لأوباما لأنه لا يوجد ما يجبرني على تحمل المشقة النفسية لوجود إسرائيلي إلى جواري، لكنني لو حضرته كصحفي يمثل جريدته ولقرائه حق عليه، فسأتحمل تلك المشقة وأحضر اللقاء متجاهلا وجود الصحفي الإسرائيلي وسأؤدي عملي وأنصرف، وهو مايفعله كل يوم مئات المثقفين والأكاديميين والفنانين والصحفيين العرب الذين لا غبار على وطنيتهم عندما يمارسون أدوارهم في المؤتمرات الصحفية والعلمية والطبية ومعارض الكتب ومهرجانات السينما والمنتديات

الاقتصادية التي لا يعقل أن نقاطعها لوجود إسرائيليين فيها، لأن انسحابنا منها سيكون نصرا حقيقيا نقدمه مجانا لإسرائيل، لكنني في نفس الوقت لو مد إسرائيلي يده إليَّ ليصافحني فلن أفعل، ولو فعلت لأنني لم أكن أعلم هويته وعلمتها بعد مصافحتي له لسحبت يدي فورا وسمعته كلمتين بايختين وابتعدت عنه فورا، وربما اكتفيت بسحب يدي والابتعاد فورا وأنا أمتلئ ندما وغيظا، لا أدري هل حدث لك موقف مماثل لهذا إذا كنت قد خضت تجربة الإقامة خارج مصر، وفوجئت وأنت تجري حوارا وديا مع شخص في مطار أو فندق أو حتى حديقة ثم اكتشفت أنه إسرائيلي؟ لا أدري هل صرخت في وجهه فجأة، أم رحلت من أمامه مسرعا، أم تجمدت صمتا وذهولا.

أنا عن نفسي حصل معي ذلك، فماذا فعلت؟

الحكاية حصلت قبل عامين، كنت يومها أجلس على ضفة نهر جميل في إحدى مدن ويلز الساحرة والنائية، لا تتوقع مني أن أصف لك جمال المكان فقد حاولت كثيرا وفشلت، يكفي أن أقول لك إن سحره دفعني للتفكير في الانقطاع التام للعبادة فور وصولي إلى مصر لعلي أحصل في الجنة على حتة أرض بها كل هذا السحر، وربما أراد الله عز وجل أن يلقنني يومها على الفور درسا قاسيا لمجرد أنني شبهت جمالا دنيويا بجمال الجنة الذي لا يتصوره الخيال.

سمعت صوت خطوات تقترب خلفي فالتفتُّ نحوها، وجدته خلفي خمسينيا أشيب الرأس ينظر مبتسما إلى كمبيوتري المحمول

الـذي ينبعث منه سـحر فيروز التي كنت أقول لنفسـي وقتها والعلم عند الله إنها ستكون الإذاعة الداخلية في الجنة. ظننته معجبا بصوت فيروز ثم اتضح أنه يفكر في شيء آخر عندما قال لي بلطف: «لو كان هناك إنترنت لاسلكي لاستعرت منك الكمبيوتر ودخلت على بريدي الإلكتروني». قلت ضاحكا: «صحيح أننا في الجنة ولكن هذه الأمنية بالذات غير متوفرة للأسف». لا أريد أن أستمر في نقل الحوار مترجما على طريقة معامل أنيس عبيد، فالخلاصة أننا أخذنا نتحدث عن عدم توفر خدمة الإنترنت في المنطقة كلها، وعبرت له عن شعوري بالفخر لأن خدمة الإنترنت لدينا في مصر أفضل بكثير. اتضح أنه سافر إلى مصر من قبل ولذلك رد عليَّ مداعبا بأن هناك أشياء في مصر ليست أفضل بالتأكيد مما تراها هنا. أغلقت الكمبيوتر ووجدتها فرصة لاستعراض تحسن قدرتي على المحادثة أمام زوجتي التي كانت تراقب الموقف من ركن الأطفال الذي كانت تلعب فيه ابنتي، اتضح أنه طبيب يقيم في لندن لكنه يمتلك عزبة ورثها عن والده ويأتي مع أسرته لقضاء عطلته الصيفية فيها. أشار إلى ابنه وابنته اللذين يلعبان في ركن الأطفال بصحبة والدتهما. كانت زوجتي وزوجته قد بدأتا حوارا وديا في نفس اللحظة، بعد دقائق تجمع شملنا وأخذ الأطفال يلعبون معا بينما دار بيننا حوار مشترك حول مقارنة التلوث في لندن بتلوث القاهرة. بدأت زوجتي تصف جو القاهرة وصفا خياليا من باب تشجيع السياحة الوطنية، نبهتها إلى أنهم زاروا القاهرة بالفعل، فغرقنا في الضحك، سألني الرجل: كيف اهتديت إلى مدينة مجهولة مثل هذه

ليست معروفة للسياح العرب؟ قلت له: إن الفضل يعود إلى زوجتي التي جاءت إليها في أثناء دراستها في بريطانيا ودلتني عليها. أخذ هو وزوجته يحدثوننا عن ضرورة أن نزور ضيعتهم التي تطل على أماكن أجمل، فجأة قالت زوجته إنها سعيدة لأنها سيتاح لها أخيرا أن تتعرف على عرب ومسلمين، وإنها معجبة بألوان الإيشارب الذي ترتديه زوجتي، وإنها كانت تتمنى أن يسمح لها في عملها بارتداء ألوان مثل هذه. سألتها زوجتي عن طبيعة عملها فردت ببساطة: «حاخام»، كانت التبليمة التي انطبعت على وجهينا أكبر من أن يتم تجاهلها. سألني: «هل لديكم مشكلة في التحدث مع حاخام؟». فجأة بدا وكأننا نسينا الإنجليزية وأخذنا نصدر أصواتا غير مفهومة، ثم استحضرنا كل ما تعلمناه من الدكتور عبد الوهاب المسيري وبدأت أصواتنا في العودة إلى طبيعتها قائلين إننا لا يمكن أن نكون ضد اليهود أو اليهودية، وإن مشكلتنا كعرب ومسلمين هي فقط مع الإسرائيليين، وقبل أن نستعيد طلاقتنا ونفتح على الرابع لنقول كل هذا، باغتنا بهدوء إنجليزي يشلّ أن المدام الحاخامية إسرائيلية وأنهم قادمون للتو من زيارة إلى إسرائيل.

لم أختبر في حياتي ذهولا كهذا. للحظات تجمدت ثم فجأة انقضضت على ابنتي وهي تلعب مع طفليهما كأنني أحررها من أيدي خاطفين، هاربا من نظرات الطفلين اللذيْن لم يفهما ما الذي حدث للتو، وزاغرا الطفلتي التي «زمزقت» لأنني قررت فجأة أن أقل مزاجها في اللعب مع الأطفال، بينما كانت زوجتي لا تزال تغالب ذهولها. فجأة اختفت كل ملامح الطيبة والحنية التي كنا نرى

الاثنين من خلالهما، وهما فهما اللي فيها ففتحا في الكلام بحماس يشرحان لنا ونحن نلملم أشياءنا أنهما ضد الصهيونية، وأنهما يشاهدان قناة الجزيرة الدولية ويتعاطفان مع حقوق الفلسطينيين، بينما كنا لا نزال واقعين تحت سطوة سهم الله الذي نزل علينا، وعندما بدأنا نتحرك مبتعدين عنهما اقترب الرجل مني أكثر وقال لي بحزن حقيقي: «لماذا تتصرفون هكذا؟».

وأنا رديت طبعا.

«لماذا تتصرفون هكذا؟». لم يكن السؤال الذي وجهه إليَّ زوج الحاخامية الإسرائيلية معضلا لكي لا أرد عليه بشكل حاسم وقاطع. فجأة قرملت زوجتي ما تصورته ردا تاريخيا فنبهتني إلى أنني أتحدث بالعربية الفصحى، لأكتشف أن شوية الإنجليزي الذي كنت فرحا بها طارت مع انفعالي، وأنني لم أكن أجيب على الرجل بل كنت أهتف في وجهه بالعربية الفصحى، لذلك نقلت زمام القيادة إلى زوجتي التي باتت مطالبة بالإجابة بلسان إنجليزي مبين عن أسئلة أخرى انهالت عليها من الحاخامية، أبرزها سؤال حول ذنب أطفالنا في أن يحرموا من اللعب معا بسبب اختلافنا. نسيت أنني أعطيت زوجتي توكيلا على بياض للرد فقلت منفعلا: «وما ذنب أطفال فلسطين في أن يحرموا من الحياة بسبب تعاليم التلمود؟». نبهتني زوجتي أنني اتحدث بالعربية مجددا، ثم أخذت نفسا عميقا وفتح الله عليها فقالت كلاما متماسكا لا يفارق ذهني حتى الآن مع أنني وقتها كنت مشغولا بترجمته أكثر من انشغالي بالإعجاب به:

«بالتأكيد كنا سنكون سعداء بلعب أطفالنا معا وبزيارة ضيعتكم بل وبدعوتكم لزيارة مصر وتعريفكم على أماكن ساحرة بها، لو كنتم فقط يهودا تمتلكون مبادئ إنسانية تجعلكم تمتنعون عن الاعتراف بوجود دولة تغتصب أرضا ليست أرضها وتشرد أهلها بالقوة وتعتدي كل يوم على حقهم في الحياة، سأسألك سؤالا: لو عرفت من خلال حديثك معي أنني وزوجي موافقان على ما يفعله تنظيم القاعدة بقتل المدنيين الأبرياء وأننا نتفهمه ونجد له مبررات، فهل ستسمحين لأطفالك باللعب مع ابنتنا، أم إنك ستبتعدين عنا فورا؟ أظن أنك ستبتعدين فورا، ولذلك نحن نبتعد عنكم الآن فورا، لعل ابتعادنا هذا يجعلك تفكرين في أسباب الكراهية التي نكنها نحن كعرب ومسلمين لكل يهودي لا يخجل من إعلان دعمه لدولة تغتصب أراضي ليست لها وتقتل أهلها، فتفعلي مثلما فعل يهود كثيرون محترمون أعلنوا براءتهم من جنسية تلك العصابة التي لن تصبح دولة أبدا».

ابتعدت زوجتي بعد أن قالت كلامها، ووجدت أنه ليس من المناسب أن أبتعد دون أن أقول شيئا، لكي لا تسأل الحاخامية زوجها: ماالذي جعل زوجتي ترتبط برجل مثلي لا يعرف تجميع كلمتين على بعض؟ وجهت إصبعي نحو الرجل وقلت له: «قبل أن أمشي هل يمكن أن تجيبني: كيف سيكون شعورك لو ذهبت إلى ضيعتك فوجدتني احتللتها بقوة السلاح، وقلت لك إن أجدادي كانوا قد أقاموا فيها قبل ألف عام وقمت بقتل طفليك؟». زغدتني زوجتي وقالت لي إن الجملة الأخيرة يمكن أن تعطي للرجل الحق

في أن يودينا في ستين داهية، وأنا لم آبه لما قالته ونظرت ثانية للرجل وقلت له بالعربية: «هه؟»، ثم ابتعدنا وقد تركنا الرجل وزوجته في حالة يرثى لها.

الآن أسألك وأنا لا أمتلك إجابات قاطعة عن أسئلتي التي سأدعوك للتفكير معي فيها: طالما فرضت الظروف علينا وعلى غيرنا لقاء كهذا لم نكن نتمناه أو نسعى إليه، هل كان الأفضل أن نكمل تجاهلنا للرجل وزوجته وننصرف دون أن نعبر عن منطقنا الرافض لهما بما قدرنا الله عليه؟ طيب .. أليس الأفضل لقضيتنا العادلة أن نواجه الإسرائيليين هكذا في كل المحافل الدولية التي لا نملك أن نتحكم في وجودهم بها؟ لماذا لم نستجب حتى الآن لتلك الدعوة المهمة التي أطلقها الكاتب الكبير صلاح عيسى بضرورة عقد مؤتمر وطني تحضره كل القوى السياسية والتيارات الفكرية لتحديد معايير لمفهوم التطبيع والمقاطعة تجعلنا لا نختلف كل شوية ذلك الاختلاف الممجوج الذي تفوح منه رائحة المزايدات الرخيصة، ولا تجعل بعض مثقفينا يضحك على الناس ويصور حضور حفل عازف إسرائيلي يتم دعوته لتدنيس دار الأوبرا على أنه رسالة سلام، وتجعل بعضهم الآخر يصور حضور مؤتمر صحفي يعقد في بلادنا وعلى أرضنا على أنه تطبيع، وتجعل الكثيرين حائرين في مواجهة أسئلة مثل: لماذا لا نقاطع جميعنا مثلا الروائية الكبيرة أهداف سويف والعالم الجليل أحمد زويل لأنهما زارا إسرائيل، مع اختلاف طبيعة الزيارة وتفاصيلها وأهدافها دون شك؟ ألم تستفد القضية الفلسطينية من زيارة أهداف سويف

للأراضي المحتلة والتي كتبت عنها سلسلة مقالات في صحيفة الجارديان البريطانية كانت أبرك بكثير من حملات المقاطعة التي نمارسها وندعو لها كل يوم؟ وعلى سيرة المقاطعة وحملاتها، لماذا لا نقاطع جميعا قناة الجزيرة التي تستضيف إسرائيليين يوميا، وتستضيف في نفس الوقت كل رموزنا الوطنية التي يزايد بعضها على زملاء لهم لم يرتكبوا تطبيعا مباشرا؟ ألسنا حقا بحاجة فورية لتحديد معايير ومحددات التطبيع ليس من أجلنا، بل من أجل الأجيال القادمة التي لن تكون تناقضاتنا ولخبطتنا في مصلحتها أبدا؟

أخشى ما أخشاه أن تدير ظهرك لكل هذه الأسئلة وتسألني: «وإنت بقى إيه اللي وداك ويلز أساسا؟».

بين ويلز والقاهرة ٢٠٠٩

خمس كاميرات مكسورة!

حدثني عن أهمية الصبر فقط عندما تجد نفسك مطرحي.

هل أنفجر الآن هاتفا وأجري نحو أقرب علم إسرائيلي يرفرف في وجهي فأنتزعه من حامله وأمزقه أو أحاول حرقه على طريقة فيلم (صعيدي في الجامعة الأمريكية)، فأسقط على الأرض وأنا أتعرض لضربات مئات المحتشدين المدافعين عن علم دولتهم، والذين سيتفرق دمي بينهم، فأنضم إلى قافلة الشهداء الصناديد، ولكن ليس عن بطولة حقيقية ولكن بسبب معركة مجانية تدور رحاها على أرض «الفيفث أفنيو» في قلب مدينة نيويورك، ستتخذها الصحف ومحطات التلفزيون كلها على الفور دليلا على همجية العرب وعدم قدرتهم على الحوار وقبول الآخر.

كنت قد خرجت من فندقي يومها في الصباح الباكر لكي أتجه إلى المتحف اليهودي القريب مني، والذي يعتبره الكثيرون أهم متحف للتراث اليهودي في العالم. كنت مهتما بزيارة جناح يوثق

للوجود اليهودي في مصر في مطلع القرن العشرين قرأت عنه قبل أيام، كان دور زيارتي للمتحف ضمن قائمة زياراتي النيويوركية قد جاء بالصدفة في ذلك الأحد الذي وافق الثالث من يونية والذي لم أكن أعلم أنه نفس اليوم الذي سيحتفل فيه أنصار دولة إسرائيل في نيويورك بما يسمونه (عيد استقلال إسرائيل). كنت قد وصلت إلى المدينة قبلها بأيام، وشاهدت أعلام إسرائيل معلقة على الكثير من أعمدة الإنارة في شوارع نيويورك مصحوبة بجملة (مسيرة إسرائيل) التي تعقد كل عام تأييدا من كل أنصار إسرائيل لها واحتفالا بها، وكنت أظن أن المسيرة ستنعقد في يوم الخامس من يونية المشئوم للاحتفال بانتصار إسرائيل على الجيوش العربية، ثم عرفت يومها أن المسيرة تقام في الأحد الأول من كل شهر يونية أيا كان التاريخ الذي يوافقه، لكي لا يتم تعطيل الطرق التي تكون خالية في يوم الإجازة، ولكي يسهل حشد الكثير من الأنصار من أجل المسيرة التي لا يفوقها في ضخامة عدد المشاركين إلا المشاركون في يوم بوتروريكو الوطني الذي صادف أنني حضرته بعد أسبوعين، وشهدت كيف تحولت أغلب شوارع حي مانهاتن قلب مدينة نيويورك النابض إلى نسخة لاتينية في الملابس والأعلام والمؤخرات وروائح الشواء وألوان الطعام وصيحات اللغة الإسبانية المتصاعدة من آلاف المبتهجين في الشوارع والنواصي.

كان المتحف مزدحما للغاية ولم تكن بي طاقة للانتظار في طابور طويل، ففضلت التسكع في الطرقات حتى يأتي موعدي التالي. وقفت أرقب المشاركين في مسيرة إسرائيل وهم يلوحون

بأعلامهم بفرحة وابتهاج حاولت أن أقرأ في اللافتات التي يحملونها مصدرا جديدا لهما فلم أجد. كانت السفريات المتالية إلى الخارج قد علمتني كيف أتمكن من كبح جماح اندفاعي عندما ألتقي صدفة بمواطنين إسرائيليين وكيف أحاول ألا يبدو أنني متوتر عندما أكتشف هويتهم، بل أبدو واثقا من نفسي وأستغل الفرصة لتوجيه رسائل سياسية مباشرة لهم وللمحيطين بنا في ذلك اللقاء. لا زلت أذكر المرة الأولى التي التقيت فيها بإسرائيليين خلال زيارة لأحد شلالات مدينة أنطاليا التركية، كنت أسير مع زوجتي ضمن مجموعة سياحية قادمة من القاهرة، عندما فوجئنا بمرشد سياحي تركي يقترب منا ليسألنا مرحبا: «من أين أنتم؟»، وعندما أجبناه أننا من مصر، أشار إلى مرافقيه بفخر شديد وقال لنا: «هؤلاء أولاد عمكم من إسرائيل». أقبل علينا من معه مرحبين بحفاوة شديدة ومادين أيديهم بالسلام ليفاجأوا بنا ونحن نقف في حالة من الارتباك الشديد انتهت بأن غادرنا المكان مسرعين دون أن نمد أيدينا للسلام عليهم، مكتفين بأن نصوب نحوهم نظرات نارية حادة.

كنت منذ لقائي بالرجل البريطاني وزوجته الحاخامية على ضفة ذلك النهر الويلزي قد تعودت على أن أخوض مناقشات جادة وحامية مع أصدقاء أو معارف أمريكيين وبريطانيين بل وأتراك وهنود أحيانا حول إسرائيل وموقفنا منها وما الذي نريده كعرب لكي يحل السلام في ربوع الشرق الأوسط، وتعلمت من التجارب المتالية أن النبرة الحادة واللغة الصاخبة التي تريحنا داخل أوطاننا لا تجديان شروى نقير في الخارج، وأن أكثر ما يمكن أن تفيد

بـه القضيـة الفلسـطينية حقـا وصدقا هو اسـتخدامك للغـة المنطق التـي تعرض بهـدوء حقائق حـول عنصرية إسـرائيل وعـدم قبولها للفلسـطينـين أصلا كبشـر يتمتعون بأبسـط الحقوق المشروعة. أقر هنا أنني اسـتفدت كثيـرا من لغة ومنطق وأفكار المفكر الفلسـطيني العظيم إدوارد سـعيد خصوصا في محاوراته مع الصحف العالمية، وهي المحاورات التي جمعها بنفسـه في سلسـلة كتب صدر أغلبها عن دار الآداب اللبنانية. صحيح أن بعضها كان يبدو منفرا لشـخص مثلي تربـى على فكرة اسـترداد كامل التراب الفلسـطيني من البحر إلى النهر، وعلى أن التفريط في شـبر من أرض فلسـطين خيانة ولو كان ذلـك بطـرح فكـرة الدولة الواحـدة التي اكتشـفت بعد ذلك أن طرحها كان أكثر ما يربك المؤيدين لإسرائيل في كل مناقشة خضتها معهـم، لأن مجرد رفضها من الباب للطاق دون منطق كان يكشـف للمحايديـن أو غير المتابعين عنصرية الفكـرة التي بنيت عليها دولة إسرائيل، برغم ذلك ربما أتفهم ولكني لا أتقبل حتى الآن تعاملات إدوارد سـعيد مع الإسرائيليين الذين يوصفون بأنهم محبون للسلام مثل الموسـيقار دانيـل بورنبايم الذي شـاركت في شـن حملة عليه عندما جاء إلى القاهرة قبل ثلاث سـنوات، ولا زلت وسـأظل أعتبر أن كون الإنسـان إسـرائيليا يحمل جنسـية بلد غاصب محتل ولكن هذا الإنســان يعتبر نفسـه محبا للسـلام في ذات الوقت هو إشكال يخصـه هـو دون غيـره، وعليه أن يعلـن عن حبه للسـلام ولكن بعد أن يثبته أولا بأن يتخلى عن جنسـية دولة تغتصب حقوقا ليسـت لها وترتكب فظائع لا يقبلها أي ضمير إنساني.

كل هذا جال في خاطري خلال الدقائق التي ظللت أراقب فيها المسيرة الحافلة بآلاف من المبتهجين الذين يرفعون أعلام إسرائيل عالية خفاقة وهم يسيرون في شوارع نيويورك المحددة سلفا لمسيرتهم، ظللت أبحث بعينيّ في الشوارع المحيطة عن مسيرة عربية مناهضة يتم تنظيمها بشكل رمزي للعكننة على المشاركين في المسيرة أو حتى وقفة احتجاجية تذكر بالفظائع التي ارتكبتها إسرائيل من باب عرض الرأي والرأي الآخر، إلا أنني لم أجد أثرا لأي من ذلك، سألت كل من أعرف من أصدقائي المقيمين في المدينة عما إذا كان ذلك مسموحا به قانونا من الأصل، فلم أجد إجابة شافية، قال لي البعض إنهم سمعوا عن دعوات لعقد وقفات احتجاجية مثل هذه لكنها عادة تكون أمام مقر الأمم المتحدة، سألت عما إذا كانت هناك مسيرة تعقد باسم (مسيرة فلسطين) يتم تنظيمها في يوم ذكرى النكبة ويتم فيها حشد العرب والمسلمين والمتعاطفين مع القضية الفلسطينية من كل الجنسيات، وأزعم أن أعدادهم ستكون أكبر إذا صدقت النوايا، فنفى لي كل من أعرف وجود مسيرة حاشدة كهذه، ربما كانت هناك وقفات احتجاجية أو مظاهرات عند وقوع جرائم إسرائيلية مروعة مثل العدوان على غزة أو قتل محمد الدرة، لكنه لا توجد للأسف مسيرة منتظمة من أجل فلسطين يتم الحشد لها بشكل إعلامي من قبل كل الجاليات العربية والإسلامية التي لا تعاني أبدا من قلة العدد في نيويورك. قلت لأكثر من صديق إن أصحاب عربات الهوت دوج والفلافل الذين يحتلون كل نواصي نيويورك المهمة والفرعية، وحدهم كفيلون بأن

يثيروا اهتمام الرأي العام النيويوركي والأمريكي في آن واحد، لو شاركوا في هذه المسيرة خلال يوم عقدها، كما يفعل البورتريكيون في يوم عيدهم، أو كما يفعل مناصرو إسرائيل في يوم مناصرتهم لها، خاصة أن القانون لا يمكن أن يمنعهم من حرية التعبير عن رأيهم، لكن المشكلة أنهم لا يريدون التعبير عن رأيهم أصلا.

الصدفة وحدها جعلتني أشهد ردا قويا ومزلزلا على مسيرة إسرائيل في نفس اليوم وفي قلب نيويورك، لكنه رد لم يأت من عرب ولا من مسلمين على الإطلاق، بل جاء من خلال واحد من أشهر المراكز الثقافية في نيويورك (منتدى الفيلم). كانت صحفية أمريكية صديقة قد دعتني في مساء نفس اليوم لحضور عرض فيلم تسجيلي فلسطيني بعنوان (خمس كاميرات مكسورة)، كنت قد قرأت عنه أكثر من عرض نقدي يحتفي به بشدة. عندما اتصلت بي الصحفية صباح ذلك اليوم لكي تؤكد على موعدنا وجدتها تنبه عليَّ أن آتي مبكرا تجنبا للوقوف في طابور مزدحم قبل الدخول إلى العرض، قلت لها ساخرا: من سيهتم في نيويورك بحضور فيلم تسجيلي وكمان فيلم فلسطيني؟ فقالت لي إن ذلك ليس صحيحا وإنها عثرت لنا بصعوبة بالغة على تذكرتين لأن التذاكر كلها نفدت قبل أيام واضطرت للاستعانة بصديق تنازل لها عن تذكرتيه مؤجلا الفرجة إلى يوم آخر. قلت لنفسي: إذن فقد ظلمت عرب نيويورك عندما ظننتهم غافلين عن ضرورة مساندة القضية الفلسطينية في يوم كهذا، فهاهم يساندونها بالالتفاف حول فيلم مهم كهذا يحكي

عن معاناة المصور الفلسطيني عماد برنات الذي تحطمت خمس كاميرات له على أيدي قوات الاحتلال الإسرائيلية، ويحكي في الفيلم الذي اشترك في إخراجه قصة كل كاميرا عارضا نماذج من اللقطات التي صورتها قبل تحطمها، في أثناء توثيقه على مدى سنوات لكفاح قرية (بلعين) الفلسطينية ضد الجدار العازل الذي بته السلطات الإسرائيلية وخربت من أجله حقولا ومزارع لأهل البلاد الذين قرروا أن يناضلوا ضد الجدار سلميا ليس فقط في المحاكم الإسرائيلية المتحيزة ضدهم، بل ومن خلال مظاهرات سلمية بدأت تتحول إلى ظاهرة دولية بانضمام نشطاء دوليين لمشاركتهم والتضامن معهم.

في المساء اكتشفت أن نصيحة صديقتي كانت مهمة، فلولا أننا جئنا مبكرين لظللنا واقفين في طابور طويل مكتظ بأكثر من ٥٠٠ شخص حرصوا على مشاهدة الفيلم، وكان هناك خمسمائة قد حضروا الحفلة التي سبقتنا، ومثلهم وجدناهم يقفون في طابور طويل لحضور الحفلة التالية لنا، وأزعم باستقراء سريع لوجوه من رأيت أن نسبة العرب أو الشرق أوسطيين الحاضرين لم تكن تتعدى الخمسة في المائة على أقصى تقدير، بل كان هناك حضور يهودي لافت بعضه ليهوديين متدينين تصورت لوهلة أن بعضهم جاء لإحداث شغب مثلا، بعضهم كان يجلس في نفس الصف إلى جواري وأقسم بالله إنه كان يشاركني في التصفيق الحاد للفيلم عقب انتهائه. كان الفيلم تحفة فنية بكل المقاييس، في أجزاء كثيرة

منه كانت تتعالى أصوات البكاء من مواضع متفرقة من الصالة تعاطفا مـع أحـزان الفلسـطينيـين ومآسـيهم، لن أنسـى أبدا كيـف توحدت الصالة في شهقة واحدة علت بعدها كلمات مثل «يا إلهي.. أوه لا.. لماذا» عقب لقطة تصور مقتل مواطن فلسـطيني كان حضوره شديد المـرح والحيويـة والإبهاج منـذ بدأت أحـداث الفيلـم، ثم أصيب فجأة برصاصة إسـرائيلية في رقبته جاءته من بندقية قناص إسرائيلي يقـف خلف الحاجز الـذي كان المواطن الفلسـطيني «عبد» يتظاهر مـن أجل هدمه مع مجموعة من نشـطاء السـلام الدوليين، وأخذت الكاميـرا تصور فـي لقطات صـادمـة صـادقة كيف فـارق الحياة أمام أعين الجميع.

لا أمتلـك براعـة الناقـد العظيـم رؤوف توفيق لكـي أتمكن من حكاية الفيلم لكم، وإلى أن تتـسـنى لكم مشـاهدته دعوني أقلْ لكم إننـي علـى كثرة ما شـاهدت مـن أعمال سـينمائية فلسـطينية روائية وتسـجيلية، لم أشـاهد فيلما صادقا وبارعا مثله في عرضه للمأسـاة الفلسـطينية بمزيج سحري من الضحك والدموع والمرارة والعبث. بعد أن أضيئت الأنوار وجدنا أحد العاملين في منتدى الفيلم يمسـك بالميكروفـون ويقول لنا بسـعادة بالغة إننا نحـن الذين حضرنا هذه الحفلـة والذين سـيحضرون الحفلة التالية محظوظـون لأن مخرج الفيلم الفلسـطيني عماد برنات وشـريكه في صنـع الفيـلم قد وصلا قبـل سـاعات إلـى نيويـورك لحضور عـروض الفيلم الـذي تجري محـاولات جـادة لكي يخوض منافسـات مـسابقة الأوسـكار على فئة أحسـن فيلم وثائقي. (حدث بالفعل وتم ترشـيح الفيلم رسـميا

للمنافسة على أوسكار أحسن فيلم وثائقي). صفقت القاعة لدقائق احتفاء بصانعي الفيلم اللذين بكيا من فرط تأثرهما برد فعل الناس الحماسي. مع الكلمات الأولى التي تم بها تقديمهما للحاضرين فوجئت بمعلومة لم أكن أعرفها وهي أن مخرج الفيلم المشارك جاي ديفيدي ليس يهوديا فقط كما كنت أعتقد بل هو أيضا إسرائيلي الجنسية، كنت قد قرأت في تيترات افتتاح الفيلم أن هناك جهات إسرائيلية مستقلة شاركت في إنتاجه، قالت لي الصديقة الأمريكية إنها جهات تعتبر ملعونة من قبل اليمين الإسرائيلي، بل ويصنف بعضها في حكم مرتكبي الخيانة العظمى لإسرائيل. متحديا رددت على صديقتي الأمريكية المحايدة بشكل كان يثير غيظي دائما: «يبدو أن اللعبة الإسرائيلية لإظهار ديمقراطية المجتمع قد انقلبت على أصحابها هذه المرة، فما يصنعونه عادة من أفلام إسرائيلية فلسطينية مشتركة يكون معتمدا في الأساس على المساواة بين الجلاد والضحية وإظهار أن الجميع مخطئ ومتورط في العنف، ولم أجد فيه على الأقل من وجهة نظري فيلما صادقا مع النفس بشكل حقيقي، هذه المرة باظت الطبخة ربما لأن هذا المخرج الإسرائيلي يبدو لي من ملامحه رجلا صادقا مع نفسه ولديه ضمير يقظ». قالت لي ضاحكة: «جميل طالما تراه هكذا، لماذا لا أجمعك به وتتحاوران معا وأنشر حواركما في صحيفتي؟». قلت لها وأنا أرد لها الكرة: «جميل دعيه يعلن أنه سيتنازل عن جنسية دولة ترتكب كل هذه الفظائع التي قام بتوثيقها بنفسه وأنا موافق على عرضك». قالت لي جادة هذه المرة: «سيكون عليَّ في هذه الحالة أن أحضر

له ردا إذا سألني: ولماذا لا تتنازلين عن جنسيتك الأمريكية بعد كل ما تم ارتكابه من فظائع في فيتنام والعراق؟». من الخلف جاءنا صوت يطلب منا أن نتوقف عن الهمس، وننصت إلى النقاش الذي كان قد بدأ بين صانعي الفيلم والحاضرين.

كان من أوائل السائلين صحفي أمريكي متخصص في الشرق الأوسط وجه سؤاله للمخرج الإسرائيلي قائلا له إنه عاش لفترة في إسرائيل ويعرف المجتمع الإسرائيلي جيدا، وإنه يريد منه أن يجيب بصراحة عن سؤاله: كيف يمكن أن تعرض فيلما كهذا في إسرائيل؟ ألا تعلم أنه سيثير غضب المعتدلين قبل المتشددين؟ كيف ستصمد في وجه الهجوم الشرس الذي ستتعرض له؟ سكنت ابتسامة مريرة وجه المخرج الإسرائيلي وقال له: لا أدري، المفروض أن الفيلم سيعرض في مهرجان إسرائيلي بعد أشهر، هذا ما وعدت به، ولا أدري إذا كان سيتم سحب ذلك الوعد أم لا، لكن ما أدريه أنني لم أفعل شيئا به تحيز ولا مبالغة، ولم أنقل سوى الحقيقة كما روتها كاميرات عماد التي تم تحطيمها، ولا أريد أن أنقل النقاش إلى السياسة الآن فالفيلم يقول كل شيء أريد أن أقوله، وأفضل أن توجهوا أسئلتكم لصديقي عماد فهو البطل الحقيقي للفيلم.

عقب الندوة القصيرة ذهبت صديقتي الصحفية الأمريكية إلى المخرج الإسرائيلي لكي ترتب معه موعدا لمقابلة لصحيفتها، بينما اتجهت إلى المصور الفلسطيني بطل الفيلم والذي كان يحاول التواصل مع المعجبين به متعثرا في إنجليزيته الرديئة حتى بالنسبة

إلى إنجليزيتي. انتظرته حتى فرغ من الحديث مع سيدتين عرفتا نفسيهما له بأنهما يهوديتان مقيمتان في نيويورك منذ سنين، وكانتا تقولان له بحماس إنهما تمنيا أن يشاهد كل يهودي في نيويورك الفيلم في يوم كهذا، لكي يعلموا كم الإساءة الذي تقدمه إسرائيل لليهودية واليهود. لم تكن إنجليزيتي ولا الزحام المحيط بي قابلين لكي أقوم بتوسيع المناقشة بما قرأته من كتب الدكتور عبد الوهاب المسيري أو إدوارد سعيد، لذلك اضطررت لأن أكون قليل الذوق وأقطع حواره معهما، فأحدثه باللهجة المصرية التي أشرق وجهه عندما سمعها، سألته كيف رأى فيلمه ابنه الصغير جبريل ذو الأعوام الستة والذي يحكي الفيلم قصته منذ ولد ويربطها بعبقرية برحلة الكاميرات الخمس مع البطش الإسرائيلي، ثم سألته بحماس شديد: هل يمانع أن يتم عرض فيلمه في مصر لأن كل عربي بحاجة لمشاهدة هذا الفيلم؟ على الفور، نظر إليَّ بحزن شديد وقال لي: يبدو أنك تعيش بعيدا عن مصر. قلت له بتلقائية: لا، أنا هنا في إجازة قصيرة وأنا كاتب سيناريو ويمكنني أن أساعدك لعرض الفيلم في أسرع وقت ممكن. نظر إليَّ بابتسامة تجمع بين السخرية والمرارة وقال لي: وهل ستحمل اتهامك بالتطبيع مع العدو الإسرائيلي؟ ثم قال لي إنه عندما تم عرض الفيلم في باريس شاهده ناقد مصري لم يقل لي اسمه، وإنه أعجب بالفيلم بشدة وقال له إنه يريد عرض الفيلم في مهرجان الإسماعيلية للأفلام الوثائقية، وتبادلا التلفونات، ثم فوجئ بعدها باتصال من الناقد يعتذر له لأن المهرجان اعتبر عرض الفيلم تطبيعا مع إسرائيل. باغتني عماد

برنات سائلا: طيب ياعزيزي أنت كاتب سيناريو، بذمتك هل تعتقد أنني قدمت في فيلمي عملا يخدم إسرائيل بأي شكل من الأشكال؟ ارتبكت وبدأت أشرح له أن الأمر معقد وأن هناك ميثاق شرف يمنع أي تواصل مع الإسرائيليين حرصا على.. فقاطعني بحدة قبل أن يقول لي: وهل كنت تعتقد أن هناك جهة عربية يمكن أن تتعاون معي لإنتاج عمل كهذا، وهل تعاونت مع غيري لكي تتعاون معي؟ ثم تركني ومشى مبتعدا عني.

بعدها ونحن نخرج من السينما قالت لي الصديقة الأمريكية: طبعا ستكتب في الصحف عندكم لكي تطالب بعرض هذا الفيلم الذي يخدم قضيتكم الفلسطينية كما لا يفعل أحد آخر، وبالتأكيد ستقود حملة لكي تطالب الحكومات العربية بدعمه لكي يتم عرضه في كل دول العالم؟ قلت لها: «طبعا لن أفعل لأنني سأتهم بالتطبيع.. انظري، الأمر معقد جدا ويحتاج إلى شرح طويل». نظرت إليَّ مستغربة وقالت: هل تريد إقناعي أنك يمكن أن تتجاهل الكتابة عن فيلم كهذا تماما؟ قلت لها: لا أدري، عندما أحسم حيرتي سأخبرك.

نيويورك ٢٠١٢

ودَمعٌ لا يُكفكَفُ يا دمشقُ

الذين زاروا سوريا طيلة السنوات الطويلة العجاف التي حكم فيها الأسد وابنه، يعرفون تلك القواعد المرعبة جيدا: لا تتحدث في قضايا شائكة أو حتى شبه شائكة مع أحد لا تعرفه، لا تتحدث في السياسة في مكان عام سواء كنت جادا أو هازلا ولو كنت مع أحد تعرفه وسط أناس يعرفهم، يستحسن ألا تتحدث في السياسة وخلاص.

كنا نسمع عن تلك القواعد قبل أن نزور سوريا، لكننا لم نختبر جديتها إلا عندما زرناها، كان ذلك قبل عدة سنوات، ولم يكن بشار الأسد قد أكمل ستتين على وراثته لعرش أبيه الجمهوري. يومها كنا ذاهبين لعمل برنامج تلفزيوني لصالح قناة عربية أنا وصديقان عزيزان أحدهما مخرج تلفزيوني لامع والآخر منتج فني بارع، بعد أن عبرنا أول خمسة ضباط جوازات متجهمين ومررنا إلى جوار عشر لافتات ترحب بالأشقاء العرب في بلاد العروبة وثمانين صورة للأسد الأب وورثه في كافة الأحجام والأوضاع، التقينا

بمندوب شركة الإنتاج السورية الذي رحب بنا بضحكات باشة باتت حذرة فور أن سمعني وأنا أقول له إن صديقنا المنتج الفني يقرب لسيادة الرئيس، قبل أن أردف قائلا: «أصل الأستاذ ابن مراة الأسد»، كانت تلك المرة الأولى التي أرى فيها آدميا يلف حول نفسه ثلاثمائة وستين درجة على طريقة أفلام الكرتون، لفته اللولبية توقفت عندما باغته صوت صديقنا المخرج قادما من أرضية المطار التي وقع عليها من الضحك، ولأنه تخيل أن ذهول الرجل وراءه عدم فهم للإفيه فبدأ يفسره له وهو يشير إلى الصور المحيطة بنا.

لم يكمل صديقنا السوري الاستماع إلى تفسير الإفيه، لأن حلاوة الروح جعلته يتخذ تصرفا وحيدا هو أن يجري، أي والله، أخذ يجري ويجري ويجري حتى ظننا من فرط سرعته أنه ابن عمة العدَّاء المغربي سعيد عويطة، وهكذا اختفى عن أنظارنا ليتركنا في حيرة مطبقة ونحن نحاول فهم ما جرى أو لماذا يجري بمعنى أصح؟

بعد حوالي ربع ساعة جاء إلينا شاب مهذب وخائف، وقبل أن يعرفنا بنفسه قال لنا: «منشان الله ما تحكوا في السياسة لا عن جد ولا مزح»، كان يتحدث وهو يكاد يدفعنا إلى سيارة ليموزين اتضح أن الشركة أرسلتها لنا وأنه سائقها، عرفنا أن صديقنا العداء القادم لمرافقتنا قدم استقالة فورية كنا نحن أسبابها وطلب من السائق أن يذهب بنا إلى حيث ألقت، قال لنا السائق الخائف إن الله لطف بنا لأن صاحب الشركة الذي كان مقررا أن يأتي للترحيب بنا اعتذر لانشغاله باجتماع حزبي طارئ فهو قيادي في حزب البعث، ثم

شـرح لنا موقف صديقه قائلا إن سخرية جارحة مثل هذه تقال على الملأ إذا لم تكلف قائلها الأجنبي الكثير يمكن أن تكلف سامعها السوري ما هو أكثر بكثير. كلنا كنا قد سمعنا كلاما يشبه ماكان يقوله بجدية، لكننا لم نكن نتصور أن الأمر خطير إلى هذا الحد. من باب الرخامة سألته: «يا ترى العربية دي فيها ميكروفونات؟»، ولم أكن أتصور أن عجلة القيادة ستختل في يده للحظات قبل أن يفكر مليا ثم يقول: «لا يا أخي.. ما بظن.. ما بظن». قبل أن يرفع مؤشر صوت الكاسيت إلى أعلاه ليملأ السيارة صوت صباح فخري وهو يصدح: «سيبوني يا ناس في حالي أروح مطرح ما أروح»، بدت الأغنية استغاثة احترمناها جميعا، لكن مفعولها لم يمتد معنا كثيرا، حيث ظللت طيلة فترة الزيارة التي لم تطل أكثر من ثلاثة أيام أعرف كل من ألقاه بصديقنا مدير الإنتاج «على فكرة الأستاذ ليه صلة قرابة من الدرجة الأولى بسيادة الرئيس»، والكل كان ينظر إليه مستغربا لأن لونه أسمر تماما، وكنت أبرر قائلا: «معلهش أصلها قرابة من درجة الأم».

كانت أياما غريبة وجميلة، كان من حسن حظي أن أزور دمشق في الربيع، ولذلك فهمت لماذا كان نزار قباني الذي عاش في أجمل مدن العالم عندما يحب ربيعا يصفه بأنه ربيع دمشقي. الصباح الدمشقي له أيضا طعم آخر لم أصادفه في مدن أخرى كثيرة، التقينا خلال إقامتنا القصيرة بعدد من أجمل وألمع الفنانين والمثقفين السوريين الذين كنت أعشقهم وأقدرهم، ولا أذكر أن أحدا فيهم تحدث معنا في السياسة قبل أن يدور رأسه مائة وثمانين درجة

كأنها منظار غواصة يراقب الأجواء المحيطة بالجلسة، قبلها بأشهر كنت قد أصبت بخيبة أمل عندما تعرفت على الفنان الكبير دريد لحام الذي جمعتني به علاقة عمل قصيرة أشرفت فيها على كتابة برنامج كوميدي سياسي كان يقدمه، واكتشفت كيف كان الرجل الذي كنا نظنه جريئا يخاف من ظله ويعمل ألف حساب لكل شيخ أو أمير أو رئيس يمكن أن يغضب من ضحكة يقدمها برنامجه.

عندها فهمت لماذا كان انفصاله حتميا عن الكاتب العظيم محمد الماغوط، ولذلك سعيت بشدة لكي أتعرف يوما على الماغوط، لكن حالته الصحية لم تمنحني ذلك الشرف، وأعترف أنني لم أتفهم خوف دريد وحذره ولم أقدر شجاعة الماغوط ومرارته وقسوته حق قدرها إلا عندما زرت سوريا العظيمة التي كان مهينا لها ولنا ولأهلها أن نراها منسوبة في كل شبر إلى حاكم صغير، فتذكر أن بلادنا العظيمة هي الأخرى منسوبة في أشبار كثيرة إلى صغير آخر.

بعد تلك الزيارة كتبت متهكما أنني لو كنت قد صادفت شخصا باستمارة عضوية في الحزب الوطني وأنا نازل من سلم الطائرة ربما كنت سأضعف وأوقع على الانضمام للحزب امتنانا لديمقراطيته الكرتونية التي كانت أحن وأرحم من تلك الدكتاتورية الباطشة القاطعة، والتي جعلته يكتسب شرعية تبقيه ثلاثين سنة على رأس الحكم، تاركا للناس حرية أن يسخروا ويتكلموا كما يشاؤون طالما ظل هو يفعل مايريد، قبل أن يكتشف هو ويكتشف الناس جميعا أن الكلمة يمكن أن تكون بالفعل يدا تضرب على رأس الحاكم ورجلا تطيح به من على كرسيه.

بالطبع لم أكن أتخيل لا أنا ولا كل من مروا بمواقف مثل هذه أن ينتفض المارد السوري من قمقمه الذي ظننا أنه لا يخرج منه أبدا، تماما كما لم أكن أتخيل أنني في زيارتي الثانية لسوريا التي جاءت بعد سنتين فقط من الأولى، سأقوم بشراء كتاب يهاجم بشار الأسد بشراسة من قلب دمشق نفسها.

لن أذكر الآن اسم المكتبة ولا موقعها ليس لأنني أخاف على صاحبها من بطش النظام السوري المسعور والذي زاد سعاره بعد ثورة شعبه عليه فانطلق يفتك بأحرار شعبه بكل ضراوة، بل لأنني بصراحة نسيت الاسم والموقع معا، لكنك لو أوصلتني إلى مكان ما بعينه من قلب دمشق أو أطرافها يمكن أن أصل إلى المكتبة بسهولة! يمكن أن أقول لك إن المكتبة كانت من دورين أو ربما ثلاثة، وإنها واحدة من أفضل المكتبات التي دخلتها في حياتي اعتناء بالكتب وترتيبها بحيث كان يتجلى عشق صاحبها للكتب في كل ركن منها.

برغم عشقي لارتياد المكتبات خصوصا في دمشق وبيروت، فإنني لم أدخل هذه المكتبة بالذات إلا طمعا في تكييفها وهربا من قيظ الشمس التي كانت تعربد في الخارج، لكنني بعد دقائق من دخولي إليها وتصفحي لواجهات دواليبها قررت أن أنقض العهد الذي كنت قد قطعته على نفسي بأنني سأكون حريصا في شراء الكتب لكي لا أدفع ثمن ذلك ماديا وبدنيا عند عودتنا إلى القاهرة. داخل المكتبة كان يجلس ضابط شرطة كبير السن شرس الملامح ضخم البنيان يحمل جهازا لاسلكيا ويعلق على كتفيه رتبة فهمت

أنهـا كبيـرة من تزلف الجميع لـه، كانت المشـروبات و«البزورات» والسـكاكر تنهـال عليه مجاملـة، فيما كان يمسـح عرقـه المتصبب بغزارة وهو يسـب ويلعن في المواطنيـن الذين لا يحترمون القانون ولا يمشـون إلا بضـرب «الصرمايـات». فجـأة توقف عن السـباب عندما بدأ التلفزيون يذيع على الهواء وقائع جلسـة لمجلس النواب السـوري يخطب فيها الرئيس القائد بشـار الأسـد، أخذ هو ومن بدا أنه صاحب المكتبة وعمالها يتابعون الكلام الفارغ الذي يقوله بشار بخشـوع لم تكن تقطعه سـوى الأصـوات المنبعثة من اللاسـلكي. فـي أقل من سـاعة كنت قـد اخترت مجموعـة رائعة مـن الروايات المترجمة وكتب السـينما الصادرة عن المؤسسـة السـورية للسينما. كانت الحمولة ثقيلة لكن سـعرها الزهيد مقارنة بأسـعار الكتب في القاهرة حسم ترددي في شرائها، قررت أن أخزي شيطاني وأتجنب الصعود إلى الدور العلوي ولو حتى لتصفح كتبه وقضاء وقت أطول فـي التكييف، لكن بائعا ذكيا قال لـي بلطف: «عندي فوق مجموعة بتعجبك من إصدارات المؤسسـة القديمة».

وأنـا أصعد معـه إلى الأعلى وبينما يسـألني عن الفـرق بين حر دمشـق وحـر القاهـرة، لمحت نظـرات مريبـة تبادلها معـه صاحب المكتبـة لـم أفهـم سـرها إلا بعـد حوالي سـاعة من تصفـح الكتب محـاولا الاسـتعاضة عن لـذة شـرائها بتحسسـها باشـتهاء. بعد أن راقبني مطولا ذهب ووقف على حافة إفريز خشبي يطل على أرضية المكتبة وأخذ ينظر مليا إلى الأسـفل، ثم هز رأسه بشكل يوحي بأنه

تلقى إشارة ما. اقترب مني أكثر من اللازم، وهمس في أذني: «عم أقول يا أخي.. بدك كتب ممنوعة؟»، في بلد آخر كنت سأجيب: «طبعا»، لكن صوت جهاز اللاسلكي الخاص بالضابط والمتداخل مع صوت رطانة القائد الذي يعشق الخطابات الطويلة جعلني ألتزم الحذر وأجيب: «مش فاهم تقصد إيه؟»، وهو اعتبر الإجابة نوعا من التمنع الراغب فابتسم وقال لي هامسا: «عندي كل الكتب الممنوعة اللي ما تخطر على بالك.. كتب جنسية وكتب إخوانجية وحتى كتب إلحادية إذا بدك»، ضحكت وقلت: «طب ما فيش كتب جنسية وإخوانجية في نفس الوقت؟». أشار إليَّ أن أخفض صوتي مشيرا إلى الأسفل ليذكرني بالضابط قبل أن يهمس مجددا: «وعندي كتب سياسية خطيرة إذا بتريد». اعتبر أن ملامح الإثارة التي ملأت وجهي بمثابة إجابة موافقة فأشار إليَّ أن أتبعه، وهو ينظر إلى الأسفل نظرات حذر بدت غير لازمة فقد كنا نقف في عمق الدور العلوي بحيث لا نبدو مرئيين لمن يقف في الأسفل، وصل إلى ركن خشبي تغطيه لوحة رأسية كبيرة، قام بتحريكها لينفتح باب سحري لغرفة بالغة الصغر تملؤها دواليب مكتظة بالكتب، قام بجذب حبل فأنار لمبة قوية أضاءت المكان، طلب مني أن أتبعه ولم يقم بإغلاق الباب علينا، كنت سأرفض لو حاول، ليس لعدم ثقتي في أخلاقه، بل لأن المكان كان سيكون عصيا على التنفس، كان محقا فيما قاله، لم يكن هناك كتاب ممنوع سمعت عنه بالعربية أو الإنجليزية إلا وكان موجودا بالداخل، رآني وأنا أنظر إلى عناوين الكتب منبهرا، فأراد أن يعزز انبهاري ليشير إلى رف تملؤه كتب تهاجم حافظ

الأسـد وابنـه والطائفة العلوية وحـزب البعث وتتحـدث عن وقائع مجزرة حماة الشهيرة وفظائع المعتقلات والسجون السورية.

رأيت بين الكتب كتابا لم أره منذ أن كنت في السابعة من عمري، كانت قد أصدرته دار الاعتصام عن مجزرة حمـاة وكان يعلقه بائع كتب إسلامية على واجهة مكتبته القريبة من بيتنا في الإسكندرية، كنت لا أزال أتذكر غلافه الذي رسـمه الفنـان الصنايعي المحترف سيد عبد الفتاح الذي كان يرسم أغلفة كتب الإخوان بنفس البراعة التي كان يرسـم بها صـور التزلف لمبارك في صحيفـة أخبار اليوم. كان الأسـد الأب يدوس فـي الغلاف على عدد كبيـر من الجماجم البشـرية حاملا في يده جمجمة مليئة بالدماء التي كانت تسـيل أيضا من فمه الذي كان يشـبه فم مصـاص الدماء. ذكرني الغلاف بشـريط كاسيت أحضره أيامها أحد أخوالي إلى البيت كان يخطب فيه داعية كويتي أظن أنه الشيخ أحمد القطان، كان يتحدث عن مجازر الأسد فـي مخيم تل الزعتـر قبل أن يقرأ رسـالة من الأخوات المسـلمات المعتقلات في سـجن المَـزَّة، لا زلت أذكر يومها كيف كان الشـيخ يبكـي فنبكـي جميعـا وهو يقـرأ مقطعا تصـف فيه الأخـوات كيف تحاول إحداهن إجهاض نفسـها للتخلص من الجنين الذي حملت بـه بعد أن اغتصبها الحرس، لم يوافق أحد على أن يشـرح لي معنى الإجهـاض، كمـا لـم يتعاطف أحـد مع تعجبـي كيف يرتبـط القتل والتعذيب بأشـياء لذيذة مثل أطباق المَزَّة والزعتر الذي كنت أعشق سندوتشـاته التي يقطـر منها زيت الزيتون والتـي كانت تعدها والدة صديق دراسـتي السـوري الذي هرب أبوه من بطش حافظ الأسـد،

وبرغم أن الأب مات غريبا عن سوريا، فإن ابنه صديق طفولتي لازال يعيش حتى الآن لاجئا في السويد.

كل هذه التداعيات أخرجني منها صوت تصفيق حاد ينبعث من شاشة التلفزيون في الدور الأسفل أعقبه صوت الضابط وهو يصيح: «الله مِحَيّي قائدنا»، قبل أن يجامله صاحب المكتبة والعاملون بترديد هتافه، في نفس الوقت الذي كانت يد بائع الكتب تمتد لي بكتاب إسرائيلي مترجم عن جمهوركية آل الأسد، قائلا لي بفخر إن ضبط هذا الكتاب مع أحد داخل سوريا يمكن أن يذهب بحامله إلى حبل المشنقة، لكنه سيعطيه لي هدية لأنه معجب بذوقي في اقتناء الكتب.

« ما تخاف.. لو ما ارتبكت ما حدا راح يشك فيك». قال لي بائع الكتب بعد أن رفضت هديته الجالبة لحبل المشنقة، قلت: إنني لست خائفا بدليل أنني سأشتري عددا من الكتب المناهضة لحافظ الأسد وابنه والطائفة العلوية التي كنت أحب أن أقرأ عنها المزيد، وكلها كتب تكفي لإذابة المرء في حوض من «الأسيد» الذي قرأنا كثيرا عن إذابة المعارضين في سوريا فيه خلال عهود مختلفة، أنا فقط لا أحبذ أن يتم القبض عليَّ بوصفي جاسوسا يقوم بتوزيع كتب إسرائيلية مترجمة. وجد الرجل أن حجتي وجيهة فأهداني كتابا فرنسيا مترجما يتحدث عن الفساد الاقتصادي في عهد الأسد وولده، وهكذا خرجت إلى شوارع تملؤها صور الأسد وأبيه، مارقا من جوار ضابط انتهى لتوه من الهتاف لخطاب أسدي، ومشيعا بنظرات باسمة من صاحب مكتبة ينظر بسعادة إلى حقيبتين كبيرتين

أحملهما تمتلآن بكتب بعضها يكفي لكي أذهب إلى جنة الخلد في التو واللحظة.

كنت جريئا إلى حد الحماقة، لكن حماقتي كان لها حدود، بدليل أنني تخليت عن عادة أثيرة هي من مستلزمات شراء الكتب لديَّ، لم يكن ممكنا أن أجلس هذه المرة في مقهى أو كوفي شوب لكي أخرج الكتب التي اشتريتها لأتصفحها بشغف مُرَتِّبا أولويات افتراضية للقراءة لا أفي بها أبدا، سأفعل ذلك في الأوتيل بصحبة زوجتي التي كما توقعت لم تنزعج عندما شاهدت ما اشترته يداي. أعجبتها الكتب جدا وأثنت على حسن اختياري، بل هي حتى لم تذكرني بأن ما فعلته يمكن أن يودي بنا إلى التهلكة ونحن لازلنا في أسبوع العسل الثاني الذي اختارت هي بنفسها سوريا مكانا له. زوجتي لا تقل عني جنونا، لكنها تسأل دائما أسئلة منطقية، ولذلك سألتني: «بس مش ممكن يفتشوا الشنطة ويلاقوهم زي ماعملوا مع الديفيدهات؟». قلت لها إنهم لا يفتشون الحقائب عادة قبل وضعها في الطيارة إلا إذا رأوا على أجهزة الكشف شيئا مريبا، واقترحت من باب الاحتياط أن نبادر إلى قراءة الكتب المحرمة في قلب دمشق ثم نتخلص منها بإهدائها إلى أي صديق نرغب في الخلاص منه، وهو ما فعلته بالفعل.

قد ترى أنني أحمق لأنني قمت بشراء كتب تشكل جريمة متكاملة الأركان من وجهة نظر سلطات حزب البعث. لمعلوماتك ليس كل المجرمين حمقى، لكن الجريمة عند فشلها تبدو للجميع حماقة، ولمعلوماتك أيضا غالبا ما تقود الحماقة إلى جريمة،

ومع ذلـك لا تُصَنَّف الحماقة على أنها جريمة مـن الناحية القانونية علـى أسـاس أن مرتكبها يؤذي نفسـه فقط، لذلك يسـألون المجرم عـن دافعـه لارتكاب الجريمـة لأنهم يفترضـون فيه العقـل، لكنهم لا يسـألون الأحمـق عن دافعه لارتـكاب الحماقة مع أنـه يمكن أن يكون له دافع شـديد الوطنية كالذي دفعنـي لارتكاب تلك الحماقة التي كان من الممكن أن تكلفني حياتي ذات نهار دمشـقي. ودافعي لارتـكاب تلك الحماقة كان تذكر تلك الوجوه الحزينة خائبة الأمل لأولئـك الشـبان الريفيـين الخمسـة الذين قابلتهم منـذ أيام في مطار دمشـق والذين أتحدث عنهم كثيـرا لأنهم يمثلون بالنسـبة إليَّ أبرز صورة لسـقوط شـعار الوحدة العربية على أيدي رافعيه من الحكام القومجية المستبدين آكلي مال النبي والشعوب. كان أولئك الشباب قادمين قبلي بسـاعات مـن القاهرة إلى عاصمة الشـام التي أمر قادة حـزب البعث العربي الاشـتراكي أن تفتح ذراعيهـا لكل عربي دون تأشـيرة دخول على عكـس ما تفعـل العواصم الرجعيـة الإمبريالية المرتمية في أحضان الاسـتعمار، وربما لذلك قدم الشـباب الخمسـة إليهـا خصيصا ليكتشـفوا أن فتح الذراعين يتطلب شـرطا عجيبا لـم يكـن يخطـر لهم علـى بال: امتـلاك ألـف دولار على الأقـل، ليـس لإثبـات عروبتهم، بل لتقديمهـا كإثبات لكونهم قادمين لكي ينعموا بالسـياحة القصيرة في ربوع سـوريا دون أن يتخذوها معبرا إلى بلاد غير عربية وغير شقيقة وغير اشتراكية مثل تركيا أو قبرص.

كان يمكـن أن أعبر مثل غيري إلى جوارهم دون أن أسـتمع إلى حكايتهـم، لكننا تزاملنـا في مكان الانتظار بعد أن اكتشـفت العيون

اليقظة لقوى الأمن أنني أحمل في حقيبتي ثلاثين أسطوانة ديفيدي كنت قد اشتريتها من إسطنبول التي قدمت منها أنا وزوجتي بعد أن أنهينا أسبوع العسل الأول والذي كان يمكن أن يكون الأخير. كان لا بد أن ننتظر حتى يتم التأكد من محتوى الأفلام التي كان أول سؤال تلقيته عنها: «هل فيها أفلام إسرائيلية؟». كانت روح الدعابة تستبد بي بعد أن تذكرت ماحدث في ذات المطار خلال الزيارة السابقة، ولذلك أجبت الضابط الفظ: «وهل أنا مجنون لكي آتي بأفلام إسرائيلية إلى سوريا؟»، فأحالني إلى ضابط أكثر فظاظة سألني بثقة شديدة: «عن شو عمتحكي هالأفلام؟»، قلت له وأنا أحاول أن أكون على مستوى ثقته في الحصول على إجابة: «لو تكرمت اترك لي رقم تليفونك وأعدك بأنني بعد أن أشاهدها سأتصل بك لأحكيها لك». كان الرجل مهذبا فلم يشتم برغم أن زوجتي كانت تقف على مبعدة منا، على العكس فقد خاصم التجهم وضحك قائلا: «بالله شو.. طيب اقعد إنت والخانم معنا شوي.. راح نتصل بالضابط المختص منشان ييجي يشوف الأفلام ويحكيها إلنا كلنا»، وعندما ضحكت بشدة عاد ثانية إلى فظاظته، وقال بصوت حاد: «لكن أخي بتعرف راح تتحمل مسئولية أي مواد صهيونية أو مناهضة للعروبة بدها تكون جوات الأفلام». رحل مبتعدا وهو يحمل الأفلام وتركني أتلقى نظرات العتاب المريرة من زوجتي التي قالت لي بعد صمت: «مش قلت لك هتبقى شيلة مالهاش لازمة». قلت لها وأنا أواصل المقاوحة: إن ما قالته ليلة السفر ليس له علاقة بما حدث، فالمشكلة الآن ليست في الوزن مع

شركة الطيران، بل المشكلة أن مصيرنا أنا وهي صار معلقا بين يدي ضابط متخصص في مشاهدة الأفلام واستخراج المواد الصهيونية والمناهضة للعروبة من داخلها، زوجتي من يومها جدعة ولذلك قالت لي بتحدٍّ: «ملعون أبوهم.. مافيش حاجة إسمها كده.. آخرهم يصادروا الأفلام اللي مش عاجباهم ويخلصونا.. إحنا هنخاف من إيه؟»، وأنا أكبرت شجاعتها ومع ذلك أخذت أتذكر كل ما أعرفه من معلومات عن الأفلام التي اشتريتها، قبل أن تداهمني فجأة رغبة حادة في الذهاب إلى الحمام عندما تذكرت أن على رأس هذه الأفلام فيلم «قائمة شندلر» لستيفن سبيلبيرج والذي تدور أحداثه في معتقل نازي لليهود، وهو فيلم سأكون تعيس الحظ لو وقع بين يدي ضابط نصف متابع، بينما سيكون هو سعيد الحظ لأنه ضبط شبكة موالية للصهيونية من فردين يتزعمها مصري حديث الزواج. استرها معنا يارب، ليس من أجلي، بل من أجل هذه المرأة التي أريد أن أعيش معها أطول وقت ممكن.

«الله يخرب بيوتهم.. هو إحنا لو كان حيلتنا الألف دولار مش كنا دفعناهم لحد يسفرنا اليونان؟». هكذا قال لي أحد الشباب الخمسة هامسا ونحن نتحدث في صالة الانتظار في مطار الأسد الدولي، كان الشباب ينتظرون موعد الطيارة التي ستعيدهم إلى أرض الوطن التي يطيقون البهدلة ولا يطيقونها، وأنا كنت أنتظر ضابطا يبرئني أنا وزوجتي من تهمة حيازة مواد صهيونية، لم أتورط في أي نصائح أو لوم أو عتاب أو حَضٍّ على حب الوطن فقد كنت فقيرا مثله وأعرف مشاعره جيدا، كل ما تمكنت من قوله أن أسأله

عما سيفعله بعد عودته، وياليتني ما سألت، لأنني لن أنسى طيلة حياتي ضحكته الكسيرة التي قال بعدها: «هادور على حد يسلفني تمن التذكرة اللي كنت سالفه، وبعد كده هادور على حد يسلفني عشان أشوف حد يسفرني اليونان ويارب أغرق قبل ما أوصل عشان أخلص». أنسحق الآن من القهر وأنا أتذكره، وأنسحق قهرا كلما تذكرت أن أحدا لن يحاسب حسني مبارك على قتله لذلك الشاب وآلاف مثله غرق بعضهم في البحر وغرق بعضهم في البر ودُفِنوا جميعا بالحيا وهانوا في مطارات الدنيا وموانيها بعد أن هانوا في بلادهم. سألني الشاب: «إنما همَّا موقفينك إنت والمدام ليه؟». لم يكن ممكنا أن أنبس ببنت شفة عن حكاية الديفيدهات. لذلك قررت أن أكذب حرصا على مشاعره، وقلت: «أصل أنا ومراتي صحفيين، والظاهر إنهم هيمنعونا لأسباب سياسية». نظر إليَّ بتعاطف شديد وقال: «صحيح اللي يشوف بلوة غيره تهون عليه بلوته»، وعندما داريت دموعي بضحكة مخنوقة لم يفهمني، تماما كما لم يفهم لماذا احتضنته بقوة وأنا أستعد لمغادرة المطار داخلا إلى دمشق.

نعم، دخلنا بسلامة الله وبركة الدولار، لا تستهن بقوة الدولار في دولة مناوئة للإمبريالية ومناهضة للرأسمالية. الدولار الذي خذل خمسة شباب كانوا عشمانين في أن توفر لهم العروبة فرصة عمل لم يجدوها في وطنهم المحمي بالحرامية.. هو ذاته الذي أنجاني من مخاطرة البحث عن حيازتي لأفلام صهيونية، فالضابط المختص اتضح أنه ليس موهوبا في مناهضة الصهيونية بقدر ما هو

موهـوب في شـم رائحة الـدولارات واسـتخراجها مـن جيبي، هو للأمانـة لـم يحصل علـى الكثير منهـا لأن القليل منها يكفي لشـراء الكثيـر في سـوريا، كمـا أنه لـم يكسـر القانون بـل ثنى رقبتـه قليلا، فجعل الديفيـدهات التي أحملها ترقد في مخزن المطار مغلفة بعناية في انتظار عودتي دون أن يقوم أحد بتفتيشها.

دعني أقل لك إنني لم أنتظر حتى عودتي إلى القاهرة لكي أشاهد فيلم قائمة شندلر، وبترجمة عربية رائعة أيضا، فقد وجدته لدى بائع ديفيدهات مقرصنة في قلب دمشق، كانت تلك مفارقة مدهشة تلتها مفارقة المكتبة التي اشـتريت منهـا كل الكتب المحرمة التي قضيت ليالـي فـي قراءتهـا لكي أتركهـا قبل سـفري لصديق أعلـم أنه يكتم معارضته لنظام الأسـد، وكانت المفارقة الأقل إدهاشـا أنه نظر دون اكتراث إلى الكتب التي أريتها له بفخر شـديد، وقال لي إنك يمكن أن تجدهـا «وين ماكان»، اهتم فقط بكتاب مترجم حديث الصدور، قـال إن محاولـة إدخالـه إلى البلاد فشـلت وتم اعتقال مـن قام بها، وإنـه ينوي تصويـر الكتاب وتوزيعه، كان هو الكتـاب الوحيد الذي لـم أقرأه لكنني اسـتجبت لطلبـه بالحصول عليه تضامنا مع شـباب المطـار. خـرج صديقي من الفنـدق المتواضع الذي كنـت أقيم فيه وهو يحمل الكتاب مدسوسـا في أربعة أعـداد من صـحيفتي البعـث والثـورة كلها بالطبع تزدان بصور القائد الأسـد، للعلم كان صاحبي حتـى اندلاع الثورة حيا يرزق، وكنت أسـعد بين حيـن وآخر بقراءة بعض مقالاته الموالية للرئيس بشار وحزب البعث، لكنني لاحظت أنها توقفـت مؤخرا، ولسـت أدري هل زار زبانية البعث بيته واكتشفوا

مكتبته، أم إنه لم يعد يحتمل فكرة كتمان إيمانه بسوريا فأعلن كفره بالسفاح الذي يقتل شعبا عظيما يحب الحياة ويجعلك تحب الحياة كما لم تحبها من قبل عندما تعيشها معه.

مفارقة أخرى عشتها في تلك الزيارة يمكن أن تقول لك الكثير عن أوضاع سوريا في ظل عصابة الأسد، كنت قد قررت أن أذهب إلى ضاحية الزبداني القريبة من دمشق التي قرأت عن جمالها الكثير، يكفي أنها كانت المصيف المختار لأمير الشعراء أحمد شوقي والبديع محمد عبد الوهاب، وفيها أبدع الاثنان وغيرهما شعرا وفنا لا مثيل لروعتيهما، مَنَّيت زوجتي بمناظر خلابة وطقس بديع، وعندما وصلنا إلى هناك لم نجد إلا أرضا شاحبة تكسوها نباتات مرهقة تجاورها مياه آسنة تنبعث منها رائحة مجارٍ تُزهق الأنفاس. حاولنا أن نداري صدمتنا بالسخرية، لكن مفعولها لم يستمر طويلا، خصوصا عندما استمعنا إلى أحد الأهالي الذي تعاطف مع صدمتنا مما رأيناه، وبعد أن أجرى لنا اختبارات ثقة مطولة حكى أن سر تدمير المنطقة هو الفساد الذي ساد فجعل السلطات تصهين عن أثرياء الخليج الذين اشتروا فيلات ومزارع في التلال والجبال المحيطة وقاموا بنصب طلمبات ضخمة ترفع المياه من النهر لكي يرووا مزارعهم ويملأوا «بيسيناتهم»، فلم يبق للناس إلا مياه الصرف الصحي التي سمح النظام الفاسد بأن يتم صرفها في النهر، وهو مايفسر سر الرائحة البشعة التي كانت في واقع الأمر رائحة نظام تعفن ولم تعد حتى بقايا الطبيعة الخلابة قادرة على ستر تعفنه.

كنت كلما اعتذرت لزوجتي على خيبة أمل ألفيناها في دمشق وما يجاورها، تبادر بتذكيري أنها التي طلبت أن نأتي إلى سوريا، فأذكرها أنني اقترحت أن نأتي في الربيع وليس في الصيف، ولكي نعفي أنفسنا من تلك الطاقة السلبية وننقذ ماتبقى من أسبوع عسلنا، قررنا أن نذهب شمالا إلى اللاذقية لنبحث عن منطقة اسمها (كسب) تقع على حدود تركيا. لم نفعل ذلك لأننا قرأنا عن جمالها فقد كان صعبا أن نثق في قراءاتنا بعد تجربة الزبداني، بل لأننا قررنا أن نستجيب لنصيحة أسرة لبنانية تعرفنا عليها في إسطنبول كانت عائدة لتوها من كسب وعبرت إلى تركيا من خلالها ووصفت لنا المكان بأنه جنة الله على الأرض. كان المبلغ المتبقي معنا يكفي لقضاء ليلتين على الأكثر، كانت مخاطرة تهدف لإنقاذ أسبوع العسل، والحقيقة أنها كانت مخاطرة رائعة على الأقل فقد قضينا بعضا من أجمل ساعات عمرنا هناك، قبل أن نعرف أن الطائرات التي اخترقت حواجز الصوت فوق رؤوسنا عند اقترابنا من اللاذقية عائدين إلى دمشق، لم تكن سوى طائرات إسرائيلية كانت متجهة لمهاجمة هدف سوري احتارت في تحديد طبيعته وكالات الأنباء، واتضح بعد سنين أن الهدف المضروب كان مشروعا لمفاعل نووي سوري كانت تبنيه سوريا ودمرته إسرائيل دون أن يجرؤ نظام الأسد على الرد عليها، لأنه كان مشغولا بما هو أهم قمع مواطنيها وسرقة ثرواتها.

أو كما قال أمير الشعراء أحمد شوقي: وَدمع لا يكفكف يا دمشق.

بين القاهرة ودمشق ٢٠١١

البحث عن النديم

أما آن لأبي الأحرار أن يعود من منفاه ويعانق جثمانه تراب وطنه؟ أما آن لملهم الثورات العربية أن تستريح روحه الهائمة بعيدا عن الأرض التي أحبها وناضل من أجلها؟ أما آن لعبد الله النديم أن يعود إلى مصر من منفاه الطويل؟

كانت المهمة شبه مستحيلة، أن تبحث عن قبر عبد الله النديم في مدينة كإسطنبول يتجاوز عدد مقابرها التاريخية الرسمية مائتي مقبرة؟، لكن عليَّ أن أسعى وليس عليَّ أن أدرك النجاح، فهذا هو الوقت المناسب لهذه المهمة. وقعت في غرام تركيا منذ زرتها قبل سبع سنوات، وكنت كلما زرتها وضعت مهمة زيارة قبر عبد الله النديم على قائمة أولوياتي، فقد كنت أتخيل أن له مدفنا معروفا هناك، بل وربما كان له مزار أيضا كغيره من الكتاب الكبار العرب والأجانب الذين كانت إسطنبول منفى اختياريا أو إجباريا لهم، وما أكثرهم. لم أكن أظن أن السلطان عبد الحميد كان سيضن على عبد الله النديم بضريح خاص يكرمه فيه، فما تقوله كافة المراجع أن

النديم عندما توفي مريضا بالسل أو مريضا بغربته عن مصر في ليلة الأحد العاشر من أكتوبر سنة ١٨٩٦، أمر السلطان عبد الحميد بأن تجرى له جنازة رسمية على نفقة السلطان، لتكتمل مفارقات حياته المضحكة المبكية بأن تسير أمام نعش الصعلوك الثائر بطل الغلابة وعدو الشرطة وطريد العسس والمخبرين، فرقتان من الجيش وفرقة من الشرطة وطلبة المكتب السلطاني وكبارات إسطنبول الذين لم يسلموا من لسانه وقلمه لكنهم جاؤوا لتشييعه تملقا للسلطان ليسيروا جنبا إلى جنب مع أستاذه وصديقه الثائر العظيم جمال الدين الأفغاني، كنت أتصور أنني لو سألت أي متخصص في التاريخ عن موضع قبره فسأستطيع الاهتداء إليه بسهولة، ودائما كنت أفشل في ذلك وأجد أن كل من أردد له اسمه يسمعه للمرة الأولى.

لم أكن حتى وقت قريب من عشاق إسطنبول، كنت لا أزورها إلا لمامًا مع أني أزور تركيا كل عام، لم أكن قد اهتديت بعد إلى مدخل حبها، فللمدن مداخل إذا لم تهتد إليها ظللت غريبا عنها، ولم أكن أتصور أن عبد الله النديم سيكون مدخلي للوقوع في غرام إسطنبول. كانت دائما المكان الذي أعبر عليه إلى أماكن أخرى أحبها في تركيا، لكنني هذه المرة قررت أن أستقر بها فترة أطول مما تعودت عليه لكي أبحث عن النديم، شعرت أن الوقت قد حان لكي يعود من منفاه بعد أن شهدت مصر أخيرا ثورتها الشعبية العظيمة التي دعا إليها النديم وغيره من الآباء العظام، عدت إلى ماتوفر لديَّ من مراجع عنه لكي أتتبع أيامه الأخيرة في إسطنبول لعلي أجد خيطا يوصلني إلى مكان مقبرته. صدمتني فقرات قرأتها في واحد

من أقدم وأجمل الكتب التي كتبت عن النديم وهو كتاب (عبد الله النديم خطيب الثورة العرابية) للأستاذ نجيب توفيق حيث قال: «ومما يؤسف له أنه لم يعرف قبره إلى اليوم ولم يفكر أحد في الذهاب إلى تركيا للتنقيب عن قبره لتحديد مكانه وإقامة شاهد عليه، ولو كان تم ذلك، لكان من السهل في العهد الحاضر بعد ثورة الجيش العظيمة أن ينقل جثمانه إلى وطنه ويكرّم ذكره ويحاط بكل مظاهر الإجلال والاعتبار التي تليق بتاريخ جهاده المجيد». عندما تعرف أن الكتاب صدر في عام ١٩٥٤ وتدرك أن عبد الله النديم لازال بعد كل هذه السنين من ثورة الجيش منفيًا في إسطنبول، ستعرف كم هي منكوبة بلادنا التي رزقها الله بحكام يطلقون أسماء أصدقائهم من الضباط على أكبر شوارعها دون أن يكون لهم عشر معشار ماقام به النديم من نضال دفع ثمنه غاليا، ومع ذلك فقد استكثرت عليه بلاده أن يدفن في ترابها ويكون له فيها متحف يروي قصة كفاحه للأجيال التي دجنوها وخدعوها فأصبح حتى بعض نشطائها السياسيين يعتقد أن شعبه شعب خانع لم يثر ضد الظلم ولم ينتفض ضد القهر.

لكن إذا كانت ثورة الجيش قد تجاهلت عبد الله النديم ثائر الشعب، واكتفت بعمل تمثال له في حديقة الخالدين بالإسكندرية مسقط رأسه ومرتع شبابه، فقد وجب على ثورة الشعب وهي تكرم أبطالها أن تعيد الاعتبار لكل آباء الثورة الشعبية من مثقفين وعمال وفلاحين وطلبة وما أكثرهم وما أجمل قصصهم الملهمة في تاريخنا المجيد، ولا ينبغي أن يسبق اسم في قائمة المكرمين اسم عبد الله النديم ذلك الثائر الذي تصلح قصته في حد ذاتها لكي

تكـون أكبر تكريم للشـعب المصري وأبلغ رد علـى كل ماتلصق به مـن اتهامات من بعض مثقفيه المحبطين، هذا الشـعب الذي عشـق النديـم فخبـأه في أحضـان حواريه وقراه تسـع سـنين كاملة برغم أن السـلطات كانت قد رصدت بإيعاز من الاحتلال الإنجليزي مكافأة قدرها ألف جنيه لمن يرشد عنه، وكان ذلك المبلغ وقتها كافيا لتغيير مصيـر حي بأكمله، لكن فقـراء المصريين كانوا يعرفون قيمة بطلهم النديم الذي كان خطيبهم وكاتبهم وشاعرهم وممثلهم ومضـحكهم ومبكتهم فشالوه في أعينهم بعيدا عن أعيـن العسـس إلى أن سقط في النهاية على يد شرطي حقود.

ومع مرور السنين لم تنس الأجيال الجديدة فضل النديم وعطاءه وكفاحـه، سـأكتفي بالتدليـل على ذلـك بمثال مشـرف للغايـة، إذا دخلت على الفيس بوك فستجد جروبا أنشـأه مجموعة من الشباب يطالبـون بإعادة رفات النديم إلى مصـر يحمل عنوان (بصوتك عبد الله النديم يعود للوطن)، وقد وضعوا لجروبهم شعارا يقول: (لماذا تطالب الحكومة المصرية بعودة الآثار المسـروقة ولا تطالب بعودة رفـات عبـد الله النديـم؟)، لا تحزن إذا عرفـت أن أعضـاء الجروب يبلـغ عددهـم فقـط ألفا و٥٣٠ عضـوا، وهو عدد مخجـل إذا قارنته بجروبات السـماجة والتلزيق المنتشرة في جنـات الفيـس بوك، لكن من قال إن ذلك معناه أن النديم سيعدم آلافا من عارفي قيمته وفضله سـيضمون صوتهم إلى أصـوات المطالبين بعودة رفاتـه إلى مصر، اللـوم كل اللـوم علـى الإعلام الـذي يجـري وراء أتفـه الجروبات ليسـلط عليهـا الضوء. هـه، ماعلينا، لجـأت إلى التواصـل مع أحد

مؤسسي الجروب المؤرخ المتميز الدكتور عمرو منير لكي أخبره بما انتويت عليه من بحث عن قبر النديم فأعطاني طرف خيط كنت أحتاج إليه بشدة، لتبدأ رحلتي في البحث عن قبر عبد الله النديم، تلك الرحلة التي تحتاج إلى نَفَسك معنا أيا كان موقعك وبقدر ماتستطيع، لكي تكتمل بعودة عبد الله النديم إلى مصر.

كان فألا طيبا بالنسبة إليَّ، فتحت شباك غرفتي في الفندق فوجدت مقبرة تواجهه، إذا كنت ممن تقبضهم رؤية المقابر أو سيرتها فأنت لم تر المقبرة التي أتحدث عنها، ينقصها بيسين لكي تكون فندقا من فرط نظافتها ورقيها، لو كانت موجودة لدينا لظهرت إعلانات تأجير مساكن بها فِي صفحات العقارات التي تنشرها الصحف. زال عجبي منها عندما عرفت أن اسمها مقبرة الوالدة باشا، وأن السلطان عبد الحميد الثاني أنشأها لتكون مدفنا لوالدته، لكن المدفن ضم كثيرا من أعيان ووجهاء إسطنبول وعلمائها في فترة حكمه وما أعقبها.

كنت قد اخترت هذه المرة فندقا في قلب إسطنبول ليسهل تنقلي بين مواقعها الأثرية، فكرت أن أذهب إلى قصر توب كابي سراي أو إلى دار المطبوعات العمومية لأبحث في أرشيفيهما عن أي بيانات تخص عبد الله النديم، فقد عمل النديم عند مجيئه إلى إسطنبول مفتشا للمطبوعات بالباب العالي. حاول النديم في البداية أن يكون مواطنا صالحا صامتا لكنه لم يتحمل أيامِه الكئيبة الأولى التي فقد فيها قدرته على المشاغبة، وسرعان ماعاد إلى حياة التمرد والاتصال بالمثقفين المتمردين الذين كان تقريبا ينفق مرتبه البالغ

٤٥ جنيها مجيديا عليهم. شخص كهذا لابد أن يكون له ذكر في أي وثائق تؤرخ للمرحلة، المشكلة أن ظرفا ألمَّ بصديقي الذي يجيد اللغة العربية منعني من تلك المحاولة، كان من العبث أن أحاول لوحدي، فالأتراك قوم لا يجيدون غير لغتهم، ولا يحبون أن يجيدوا غير لغتهم، فقد أغنتهم بلادهم عن كل ماسواها، ولا يجدون في ذلك غضاضة، وليسوا مشغولين بالغضاضة التي تجدها أنت في ذلك.

عندما ذهبت لكي أدخل المقبرة المواجهة للفندق وجدتها مغلقة، لأن المقابر الأثرية التي توضع على خريطة السياحة كمزارات تأخذ إجازة كل اثنين، في تقليد متوارث من أيام الخلافة العثمانية كما فهمت، قررت أن أستغل الوقت بتحديد موقع مقبرة النديم التي كان قد قال لي الدكتور عمرو منير إن المعلومات تقول إنها موجودة إلى جوار مدفن البطل الشهير خير الدين بارباروس في حي باشكتاش. فرحت بالمعلومة لأنها مختلفة عما قرأته من قبل عن دفن النديم في مقبرة مجهولة، أيا كان اتساع مدفن خير الدين فلا شك أنني سأجد اسم النديم على شواهد القبور المحيطة به، كنت قد قرأت أنه لا يوجد على شاهد قبر النديم سوى بيت شعر حزين يقول: «بالأمس عاش غريبا في ديارهمو.. واليوم مات غريب اللحد والكفن»، لكن مراجع أخرى تقول إن هذا ليس صحيحا وإن البيت من قصيدة قيلت في رثاء النديم. أنا أميل إلى هذا التصور فالمؤكد أن والدة النديم وأخاه عندما علما بمرضه بالسل سافرا إليه لكي يسانداه في مرضه الذي خاض عناءه وحيدا

غريبـا، لكنهما وصلا بعد أن تم قضاء الله واختطفه الموت، ووجدا متاعـه وأثاثه وقد نهبا، ولا أتصـور أنهما لم يهتما بمعرفة مكان قبره وتحديـده خاصـة أنه دفن كما قلنا في جنازة سلطانية رسـمية. مما شـاهدته من خلف أسـوار المقابر التـي مررت عليها طيلـة اليوم لا يوجد قبر إلا وقد كتب عليه اسـم المدفون فيه وتاريخا ميلاده ووفاته وبعـض الدعـوات له بالخـط التركـي القديـم بل وبعض الأشـعار بالعربيـة والتركية أيضا، لذلك لـن يكون الاهتداء إلى قبر النديم من خلال اسـمه مسـتحيلا، المهم الآن أن أحدد قبر خير الدين في حي باشـكتاش مترامي الأطـراف. لم تكن المهمة سـهلة، وقد ربح فيها سـائقو التاكسـي الخير الكثير، أغلبهم بالحـلال وأحدهم بالحرام، كنت قد وجدت على خرائط الإنترنت أن هناك جامعا اسمه (جامع باربـاروس) افترضــت أنـه يحتـوي مدفـن باربـاروس نفسـه كعادة الأتـراك، لكنني لم أصل إليه برغم عناء البحث، واسـتعنت بصديق تركي قال لي بعد سـؤال عدد من المرشـدين السـياحيـن إنه لا يوجد جامع بهذا الاسـم، وإن من وضـع المعلومة على الإنترنـت مخطئ، لأن خير الدين مدفون في مقبرة ملاصقة لجامع سـنان الشهير الذي يتوسط أحد أهم ميادين باشكتاش.

ذهبت في اليوم التالي إلى الجامع وفتشت في المقبرة الملاصقة لـه فلم أجد أثرا للنديم، حتى موقع قبر خير الدين وقعت فيه ضحية تناقض بيـن الموجودين الذين بـدأت إجاباتهم الغامضة تشـككني أصلا في كون خير الدين مدفونا في هذه المقبرة أصلا. قابلت شيخا طاعن السـن مشرق الوجه يبيع السـبح والطواقي والكتب الدينيـة إلى

جوار المسجد، كلما سألته عن شيء أجابني بدعاء بلغة عربية تخرج من فمه الأعجمي كالشهد المصفى، أقول له وأنا أستجمع كل ما أعرفه من مفردات تركية هي في حقيقة الأمر عربية: «عبد الله النديم؟ ميصير.. كاتب.. كهرمان.. سلطان عبد الحميد.. مرحوم»، فيجيبني ضاحكا: «اللهم لا تؤاخذنا بما فعله السفهاء منا». أسأله: «طيب قبر خيز الدين كهرمان برباروس»، فيجيبني بنفس الضحكة: «اللهم إنا لا نسألك رد القضاء ولكن نسألك اللطف فيه». كان لابد أن أكتفي في السؤال القادم بكلمة: آمين وأقبل رأسه وأغادر لكي أبحث عن مدافن يحيى أفندي التي تقع في نفس الحي والتي قال الأستاذ الكبير أحمد أمين في كتابه (زعماء الإصلاح في العصر الحديث) إن النديم دفن في مقبرة فيها، كثير من المراجع تقول إن قبر النديم بداخل مدافن يحيى أفندي مجهول المكان، بينما يؤكد الدكتور عمرو منير أن مالديه من معلومات تؤكد أن قبره معلوم المكان، وأن هذا مايؤكده أحد أفراد أسرة النديم الذي تواصل مع جروب «بصوتك يعود النديم للوطن». لفت انتباهي عند قراءة كتاب أحمد أمين أنه تحدث عن حرصه على زيارة قبر السيد جمال الدين الأفغاني في إسطنبول، لكنه لم يتحدث عن محاولته زيارة قبر النديم، دون أن يقول لنا إذا كان ذلك لأنه لا يعرف مكان قبره بالتحديد، أم إن وقته لم يتسع لذلك. لكنني - على أي حال - قررت أن أذهب إلى مدافن يحيى أفندي وأبحث عن قبر عبد الله النديم لعلني أجده، وعسى.

مدافن يحيى أفندي واحدة من أشهر مدافن إسطنبول التي تدفن

فيهـا عائـلات المدينة موتاهـا، يزاحمها في المنزلة والشـهرة مدافن السلطان أيوب، وهو الاسم الذي يطلقه الأتراك على سيدنا أبي أيوب الأنصـاري رفيق الرسـول صلى الله عليه وسـلم في أول سـكناه في المدينة المنورة، وقد اختار الأتراك لها مكانا ساحرا في تل عال مطل على القرن الذهبي الشـهير الذي يمتد من مضـيق البوسـفور، لو كان لك ميت هناك فـستحب أن تزوره كثيرا لكي تـستمتع بسحر المكان الـذي يدفع فيه الـسواح الشـيء الفلاني لكي يجلسـوا علـى مقاهيه التي تجاور مزار الكاتب العالمي بيير لوتي الذي اسـتوطن إسـطنبول ودفـن في التلة المطلة علـى المقابر، ولـم يكن حظ النديم كحظه من الاهتمام والتكريم والحفـاوة، ولذلك أصعد لأبحث عن قبره الذي أتمنـى ألا يكـون مجهولا في تلـك التلة العالية المطلـة على الطرف الآخر من مضيق البوسـفور والتي تحوي مئات الآلاف من الراقدين تحـت التراب إلـى جوار أحد أولياء الله الصالحين المعروف باسـم يحيى أفندي، فهل يكون النديم فعلا واحدا منهم؟

إيـاك أن تظـن أن بلـدا لا يحترم موتـاه يمكن أن يحتـرم أحياءه، أنـت تظن أن العكس هو الذي يجب أن يكون صحيحا، وظني أنك مخطـئ، لن تجـد أمة متحضرة تهمل موتاها أو تتجاهلها أو تـسمح بإهانتهـم، تذكـر كيـف كنـا نحتـرم الموتـى فـي عصـور حضارتنا الفرعونية والقبطية والإسـلامية، ثم قارن ذلك بما تعرضت له مدافن الموتى لدينا في الأربعين سـنة الأخيرة مـن انتهاك وإهانة وإهمال؟ لـن أذكـر لـك الآن سـوى مثـل وحيـد تذكرته وأنـا أجـوب مدافن يحيى أفندي التي تتوزع فيها المقابر بين غابة من الأشـجار الباسـقة

تطل على مضيق البوسفور، تذكرت مدفن الإمام محمد عبده الذي كان يشترك مع النديم في التلمذة على يد جمال الدين الأفغاني وفي حلم الثورة العرابية المجهض، تباينت بهما السبل بعد هزيمة الثورة، وقرر محمد عبده أن يتخذ طريق الإصلاح بعد أن فشل حلم الثورة، ومات في وطنه معززا مكرما وظل رمزا للفهم الوسطي المستنير للإسلام كانت تحتاج مصر إليه، لكنها أهملته وأهملت أفكاره وكتبه وسيرته، وهو إهمال تجلى في أبشع صوره في العام الماضي عندما نشرت الصحف صورا لمدفنه في مقابر الإمام الشافعي وهو محاط بأكوام هائلة من القمامة، وبرغم أنني أذعت مانشر وصورت تقريرا في عصير الكتب عن ذلك، فإن أكوام القمامة تم إزالتها بعد إذاعة التقرير ثم عادت لتصبح أضخم وأقبح، ولا أظن حال مدفنه قد تغير الآن إلى الأفضل.

بلاش، كم من المرات قرأت في الصحف تحقيقات عن مقابر عظماء مصر التي تحولت إلى نهب للصوص وتجار المخدرات وأغرقتها المياه الجوفية. هلا جئت معي إذن إلى مدافن يحيى أفندي لترى كيف تم اختيار المكان بعناية لكي يكون بعيدا عن خطر المياه الجوفية؟ هلا شاهدت كيف توضع على كل قبر علامة تحمل رقما يحيلك إلى سجل يحتوي معلومات عن المدفونين في القبر وتواريخ دفنهم لكي لا يختلط مكانهم يوما ما؟ المدفونون هنا ليسوا جميعا من المشاهير أو العظماء، ومع ذلك فهناك احترام كامل لآدميتهم، يسمح لبعض العائلات أن تميز موتاها بشواهد أضخم أو أجمل أو أن تتخذ لنفسها ركنا خاصا، لكنك لن تجد قبرا مهملا لأن

صاحبه رجل من عامة الناس. في مكان يطل على البوسفور مباشرة رأيت قبرا كتب على شاهده بخط فارسي جميل «المدفون في هذا القبر الشريف السيد إسماعيل عبد الباقي توفي غريبا وغريقا وراجيا شفاعة النبي العظيم». على الشاهد كتب تاريخ الوفاة سنة ١٢٩٠ هجرية، ومع ذلك يبدو القبر كأنه أنشئ بالأمس، يبدو جليا أن يد الرعاية تتعهده هو وغيره بين الحين والآخر. هناك كم من الموظفين يتوزعون في أرجاء المدافن لمساعدة الزائرين على الوصول إلى مقابر ذويهم، لا يبدو المكان مفرطا في فخامته كما رأيت في مقابر إدنبره مثلا التي تشعر فيها بوحشة رهيبة، هنا الأمر يختلف، تشعر هنا بالحنين والشجن، لا تشعر أن قلبك مقبوض، يشجعك المكان على أن تفكر في أخطائك التي يجب ألا تكررها في المستقبل، يشجعك على أن تسال عن جدوى أشياء كثيرة تتصارع عليها مع البشر، هنا تجربة صوفية عميقة تزلزل وجدانك، لكن هنا لن تجد عبد الله النديم حتى لو بحثت عنه مثلي لساعات.

لم أشعر ولو للحظة برغم جمال المكان ورقيه أن عبد الله النديم يستحق أن يظل هنا، حتى لو كان مصير قبره مهددا بأن يلقى نفس مصير الإمام محمد عبده وغيره، مسألة استعادة عبد الله النديم بالنسبة إليَّ ليست رمزية، هي مسألة تتعلق بالجوهر، بما ينبغي أن تكون عليه مصر بعد أن وضعت قدميها أخيرا على الطريق الصحيح، تاريخنا لا يصح أبدا أن نتعامل معه بمنطق (الحي أبقى من الميت)، لا سبيل إلى حاضر يحترم آدمية الإنسان ومستقبل يحقق تقدم الوطن بدون ذاكرة وتاريخ وإحياء لسيرة الموتى وكفاحهم

وما ناضلوا من أجله. لم أجد عبد الله النديم في مدافن يحيى أفندي برغم استعانتي بموظفي المدافن الذين قالوا إن الأمل الأخير يمكن أن يكون في دفاتر المدافن التي توجد في مكاتب المشرفين عليها، وهو مايتطلب جهدا رسميا يمكن أن تبذله حكومتنا إذا أرادت أن تضرب مثلا على أننا سنعود ثانية لنعرف قيمة تاريخنا وأهمية رموزنا. كنت قد قرأت في أحد أجزاء كتاب (سنوات قبل الثورة) للكاتب صبري أبو المجد عن محاولة تبناها عام ١٩٧٧ لإعادة تكريم رموز الثورة العرابية الذين حاصرهم الإهمال والتهميش وتمت مصادرة ممتلكاتهم، وكان من بين ما طالب به استعادة رفات النديم، وتمت مخاطبة الرئيس السادات بذلك عن طريق وزير اسمه يحيى الجمل الذي ستقرأ في الكتاب نص الخطاب الذي أرسله إلى «أبو المجد» يبشره بموافقة الرئيس، وها هو السادات قد مات وجاء بعده مبارك، وخرج الدكتور يحيى الجمل من الوزارة ثم دخلها بعد أكثر من ٣٤ عاما، ولم تنجح مصر في استعادة النديم، ولم يتم تكريم رموز الثورة العرابية، ولازال المصريون لا يعرفون شيئا عن الأبطال الحقيقيين لثورة ١٩، ولا يعرفون شيئا عن انتفاضتين من أجمل وأشجع الانتفاضات الشعبية في ١٩٣٥ و ١٩٤٦، لتروج بينهم الأفكار البلهاء عن خنوع المصريين وذلتهم وخضوعهم الذي انتهى بثورة يناير، مع أنها لم تكن سوى حلقة من حلقات كفاح هذا الشعب ستتواصل حتى ينتصر.

وسط القطط التي تملأ المقابر بكثافة لكي تطرد الهوام والحشرات عن المقابر، جلست أتذكر سيرة النديم بعد أن يئست

من العثور على قبره، أخذت أطالع شـاهد قبر يحمل تاريخ ١٣١٤، وقـد كتب عليه بخط فارسـي جميل (لا خلاص مـن الموت.. الله بـاقٍ) ثم كُتبـت تحت تلك العبـارة الرهيبة أبيات جميلة من الشـعر «قضـى وطـرًا مَولـى الجميـل وربُّه.. سـليلُ المُرجَّى من ولا شـك مُـسـعدُ.. حليفُ العلا الشـهمُ الوفيّ أخو التُّقـى.. وأكرمُ من قد كان يُرجَّـى ويُحمدُ.. أقول ودمعـي فوق خدي سـاكبٌ.. وقلبي من نار الجـوى يتوقّدُ.. على قبـره الرحمات مُذ حَلَّ أُرِّخـت.. يُنعَّم ضيفُ اللهِ أحمدُ أسـعدُ». جلسـت أنقل الأبيات قائلا لنفسي: لعلنا عندما نسـتعيد النديم إلينا نكتبها على شـاهد قبره الذي سنشيله في حبابي عينينـا، ونحيطـه بمتحـف يحكـي قصـة كفاحـه العظيمة مـن أجل الشعب المصري.

أخذت طريقي إلى الخـروج من المقابر وأنا أقرأ الفاتحة للنديم ولـكل أبنـاء مصر الذيـن جاهـدوا من أجـل أن تكون بـلادا تحترم إنسـانية مواطنيها أحياء وموتى، وقد رحلوا إلى جوار ربهم دون أن يروا بشـائر النصر وهي تحل على مصـر، لكنهم كانوا على يقين بأن الله لـن يضيع هذه البلاد أبدا، وقد كان، ولـن تضيع هذه البلاد أبدا مهما ظن الباطشون أو المتآمرون أو اليائسون.

أيا كان الزمن الذي سـتقرأون فيه هذه السـطور، اقـرأوا الفاتحة لعبـد اللـه النديـم وطالبـوا باسـتعادته إلى مصـر والمصريـن رفاتا وسيرة ومعنى.

إسطنبول - ٢٠١١

عشاء برفقة أردوغان

إذن فقد جاءتني الفرصة على طبق من ذهب لكي أحسم موضوع استعادة رفات إمام الثائرين مولانا عبد الله النديم. هكذا قلت وأنا أنظر إلى بطاقة الدعوة التي جاءتني لحفل عشاء مع رجب طيب أردوغان. تشعر من صيغة الدعوة أنكما ستتعشيان معا برفقة عدد من أصدقائكما المشتركين، لن يكون مناسبا أن أفتح موضوع الرفات قبل العشاء أو أثناءه، سأحكي له أولا عن ذكرياتي في تركيا بادئا بزيارتي لمسقط رأسه بلدة ريزه الخلابة المطلة على البحر الأسود، ثم سأحكي له عن مشاعر أصدقائي الأتراك المتمين إلى أحزاب المعارضة تجاهه وكيف تدور بيننا مشاحنات أتهمهم فيها بنكران الجميل لأنهم استفادوا جميعا من قرارات تاريخية قام بها حزبه وغيرت وجه الحياة في تركيا. أما موضوع رفات النديم بقى، فسأنتظر بعد نزول الحلو ولن أتوقف عن الكلام فيه إلا بعد صدور قرار وزاري بنقل الرفات في احتفالات تليق بالنديم ومعناه، وبهذه اللحظة التاريخية التي لم تعد مصر مكانا يهرب إليه الفارون من

بطش الخلافة العثمانية، ولم تعد تركيا مكانا يهرب إليه الفارون من بطش الاحتلال الإنجليزي، بل صارت لديهما فرصة حقيقية أن يغيرا وجه الشرق إلى الأبد.

عندما وصلت إلى قاعة العشاء وجدت أنها تتسع لأكثر من ألفي فرد فانهارت أحلامي بالانفراد بأردوغان، على باب القاعة نظر إليَّ أفراد الأمن بارتياب، فقد كنت الوحيد الذي يرتدي تي شيرت وبنطلونا وسط غابة من البِدَل وفساتين السهرة، ظهورك في التلفزيون يفرق معك في مواقف كهذه لحسن الحظ، وجدت الكاتب العظيم الدكتور محمد المخزنجي أمامي فأدركت أن الخروجة جابت همها وزيادة، قبل قليل كان أقصى أحلامي ينحصر في الوصول إلى الميكروفون لطرح موضوع رفات النديم على أردوغان، والآن عوضني الله بصحبة المخزنجي عن خيبة أملي في طبيعة العشاء الأردوغاني. منح الله المخزنجي الكثير: معرفة عميقة وذكاء عاطفيا آسرا وخفة ظل مبهجة وقدرة على الإدهاش في تأملاته، ومنحني فقط قدرة على استفزاز مكامن العبث بداخله كلما التقينا في مناسبة عامة أو خاصة. جلسنا إلى مائدة نستطيع فيها من بعيد رؤية أردوغان وهو يتحدث، كانت الموائد المواجهة له قد احتلها خليط من الرموز الثورية المشرقة وعدد من رجال أعمال عصر مبارك في طبعتهم الثورية غير المقنعة وعدد لا بأس به من الفلول الذين انبعثوا بكل مهارة من رماد الحزب الوطني المحترق، لم نشعر بالوقت برغم تأخر أردوغان الطويل. من الصعب أن تشعر بالملل على مائدة تضم الدكتور المخزنجي والدكتورة

منار الشوربجي والأستاذ الكبير فهمي هويدي والدكتورة أهداف سويف والأستاذة أنيسة حسونة والأستاذ نبيل عبد الفتاح والأستاذ سمير مرقص والدكتور عمرو الشوبكي. كان بديهيا أن نتحدث عن موضوع الساعة الذي يشغل الجميع، هل نتفاءل باقتراب الانتخابات البرلمانية ومن بعدها الرئاسية، أم نتشاءم ونودع حلمها بعد قرار المجلس العسكري بتفعيل حالة الطوارئ؟ الغالبية متفقون على أن موضوع إلغاء الانتخابات أو حتى تأجيلها لأجل بعيد أمر لا مكان له سوى في هواجس المتشائمين، لأن العبث بملف الانتخابات أمر لن يستطيع أحد تسديد فاتورته الباهظة، وأقصى ما يمكن أن نشهده هو مناورات ومماحكات حول مواعيد الانتخابات وتفاصيل الرقابة عليها، شخصيا ما يقلقني هو أن تساهم بعض القوى الثورية بحسن نية في تنفيذ مخطط جرها لتصعيد يدخل البلاد في حالة من عدم الاستقرار يستغلها هواة الاستبداد لتحويل إجهاض حلم الديمقراطية أو تأجيله إلى مطلب شعبي.

عن نفسي وجدت في زيارة أردوغان دافعا إضافيا للتفاؤل الجارف بمستقبل مصر خلال الأشهر المقبلة، فمن خلال معرفتي التي أظنها وثيقة بتركيا لا أعتقد أن رئيس وزراء دولة ديمقراطية بها مؤسسات سياسية واستخباراتية واقتصادية تؤدي واجبها بكفاءة يمكن أن يضيع وقتا ثمينا كهذا لكي يأتي لزيارة بلاد ليس لها مستقبل سيعود بالنفع على تركيا. صدقني الدول التي تُحكم بصناديق الانتخابات لا تؤمن بالكلام المعسول عن العلاقات التاريخية والروابط الأخوية، بل تؤمن بالمصلحة أولا، لو لم يكن

أردوغـان متأكـدا أن كل ليرة تم دفعها على هذه الزيارة ستعود إلى تركيـا مليـون ضعف، لـم يكن سـيأتي وهـو يصطحب أهـم وزراء حكومته ومائتـين من كبار رجال الأعمال الذين يعيشـون في مجتمع ديمقراطـي لا يُستدعى فيـه رجـال الأعمـال بالتلفون لنيل شـرف صحبة الرئيـس وسـماع نكاته السمجة، وهم يدعون الله ألا تطق في دماغه فيطلب زيادة نسبته هو وأولاده من أرباح شركاتهم.

بالطبـع لا ينبغـي أن يكـون التفـاؤل قرينـا للغفلـة العبيطـة عـن تحديـات المرحلة الصعبة التي نحن فيها والتـي نزيدها صعوبة كل ثانية بعناد المجلس العسـكري وتخبطه الغامض وبعدم قدرة القوى الثوريـة علـى التوحـد وترتيـب الأولويات بشـكل يجبـر المجلس علـى إعـلان خارطة طريـق واضحة ننهي بهـا هذه الفتـرة المعقربة مـن تاريخنا. صحيـح أن أردوغان قال عند وصولـه كلاما رائعا عن إيمانه بمسـتقبل مصر المشـرق، لكنه قال أيضا كلاما دعانا للخجل من أحزابنا السياسـية التي تبحث عمن يرمي لها السلطة في حجرها دون أن تبـذل أدنـى مجهـود، هو لـم يتحـدث عن أحزابنا بالاسـم، تحدث عن تجربة حزبه في العمل وسط الشارع، وكيف تم تأسيسه بأسـلوب علمـي سـليم، حيث تـم عمـل اسـتطلاع رأي مبني على أسـس علمية صارمة في ٨٢ ولاية شـامل مئات الآلاف من البشـر، وتم سـؤال الجميع عن تصوراتهم للحزب السياسي الذي يعتقدون أن تركيـا تحتاجـه الآن، بـدءا من أهدافه وسياسـاته ووصـولا إلى اسـمه وشعاره، ووجد الاستطلاع أن أكثر كلمتين ترددتا في حديث الآلاف من الأتراك هما العدالة والتـمية، فتم ترتيـب الاسمين بحيث

يتم أخذ الحرف الأول من كل كلمة ليتم تسمية الحزب (آك بارتي)، لم أكن أعرف أن أردوغان يجيد العربية إلى حد كبير، لأنه بعد أن قال هذه الجملة، نظر إلى المترجم ضاحكا وقال له بالتركية: «أتحداك أن تترجم المعنى الذي أقصده حرفيا». ضحك الأتراك الموجودون في القاعة، ولم نفهم إلا عندما بدأ المترجم يشرح كلام أردوغان الذي قال فيه إن تسمية الحزب الجديد حملت معنى سياسيا زلزل الشارع التركي، فاسم (آك) في التركية يعني الأبيض، هناك بنك تركي شهير يحمل نفس الاسم بالمناسبة، لكنه لا يعني بياض اللون بل يحيل إلى معنى النظافة، وهو معنى كانت الحياة السياسية التركية قد افتقدته لعقود طويلة، يقول أردوغان: كان أبناء أعضاء البرلمانات التركية يخجلون من أن يقولوا لزملائهم في الجامعة إن آباءهم أعضاء برلمان من شدة فسادهم. قال لي أستاذنا المخزنجي: هذا إذن الفرق بيننا وبينهم. إن أبناء أعضاء البرلمان الفسدة كانوا يقولون للجميع بكل فخر: إنت مش عارف أنا إبن مين؟ قلت: لو كنت أترجم لأردوغان لقلت على لسانه: أيها المصريون لقد حان الوقت لكي تلتفوا حول حزب تؤسسونه على نضيف؛ لكي ينسيكم أيام الحزب الوسخ الذي كان يحكمكم.

لم يكن أردوغان قد وصل بعد إلى القاعة ليلقي خطابه المليء بقنابل لم تتوقف وسائل الإعلام عندها كثيرا، لكننا كنا منشغلين عن انتظاره بالحديث عن قضايا مصيرية تعاني منها مصر، أخطرها بالطبع مشكلة الزبالة التي تسعى وسائل الإعلام لتخفيف حدتها بإطلاق لفظ القمامة عليها، وهو تزوير إعلامي فادح، فما نعاني منه

في شوارعنا ليس قمامة أبدا. القمامة لفظ يمكن أن تطلقه مثلا على مجموعة من المخلفات الورقية والبلاستيكية التي تتناثر في جنبات حديقة أوربية عقب ازدحام «ويك إند»، لكن ما نعيشه في شوارعنا هو زبالة خُلقت كلمة الزبالة من أجلها، وهو وضع ليس مرتبطا فقط بأخلاقيات الزحام أو بارتباك الإدارة الحكومية، بل يرتبط بقلب التفكير الحكومي في عهد مبارك الذي كان يحتقر المواطن المصري العادي ويتعامل معه تعاملا درج المواطن نفسه على وصفه بأنه تعامل زبالة، ولم يأت هذا الربط اعتباطا على الإطلاق.

كنت أحكي لرفاق المائدة عن تجربة قررت أن أخوضها في أثناء إقامة قصيرة في مدينة بورصة التركية رابع المدن التركية أهمية وعددا بعد إسطنبول وأنقرة وإزمير، ومع ذلك فهي لا تقل عن أيهن ولا عن غيرهن نضافة وجمالا. بُنيت أغلب أحياء بورصة على سفوح جبل أولداغ، مما يجعل التنقل في شوارعها رياضة عسيرة على المشاة ومهمة شاقة لقائدي السيارات، كان يمكن أن يتم اتخاذ ذلك ذريعة لمسئولي المحافظة للتهرب من مسئولية جمع المخلفات التي يتركها السكان، ومع ذلك لن تجد في المدينة وما حولها كوم زبالة واحدا. قررت، أن أنفس عن غيظي من ذلك الوضع، قررت أن أبحث عن وجود ثغرة فيه فمشيت ساعة كاملة خلف عربة ضخمة تجمع القمامة في أحد الأحياء الشعبية، وهو حي شعبي بالمفهوم التركي وليس بمفهومنا، فمع أنه حي يسكنه مواطنون بسطاء، فإنه يشبه في نظافته ورقيه الكثير من شوارع مصر الجديدة أيام عزها. على رأس كل شارع هناك صندوق ضخم

يقوم الأهالي بتجميع مخلفاتهم فيه يوميا لكي يسهل على العربة التقاطه بدلا من صعودها إلى شوارع صعبة أو ضيقة. لمدة ساعة لم تغادر العربة صندوقا إلا وجمعت مافيه، وعندما قام العمال ببعثرة محتويات أحد الصناديق في الأرض فوجئت بعد قليل برجل ينزل من سيارة صغيرة ينهال عليهم بما فهمته تقريعا وتوبيخا، ويجبرهم على العودة إلى المكان الذي لم يحسنوا تنظيفه، فهمت بعدها أن عمليات جمع القمامة تصحبها عمليات تفتيش يومية للرقابة على العاملين، بالإضافة إلى وجود خط ساخن للإبلاغ عن أي شكاوى من المواطنين الذين لا يتأخرون بدورهم عن وضع قمامتهم في المكان المحدد، بعد أن وفرت لهم المحافظة الآلية الناجعة، ولم تهتم فقط بسرقتهم بربط الزبالة بفاتورة الكهرباء.

لم يحدث ذلك لأن الأتراك على رأسهم ريشة الحضارة ونحن لا، لو عدت إلى قراءة الأدب التركي الساخر المترجم إلى العربية بكثافة، لوجدت في قصص عزيز نيسين ومظفر إزغو التي كتبت في الخمسينيات والستينيات من القرن الماضي سخرية مريرة من أحوال المدن القذرة المكتظة بالقمامة والتي يتبول الناس في شوارعها بكثافة. ما حدث ببساطة لكي لا نكتفي بممارسة جلد ذواتنا، هو أن الديمقراطية هناك تجذرت ممارستها أولا في البلديات والمحليات التي أصبح أعضاؤها المنتخبون نجوما في مجال خدمة المواطنين تاركين لأعضاء البرلمان مهام التشريع والرقابة والمحاسبة، يكفي أن تعرف أن أردوغان وكل رموز حزبه صعدوا إلى الحياة السياسية من خلال ممارسة العمل البلدي وخدمة الناس في المحافظات

والمدن والقرى، لم يهبطوا على الحياة التركية بالباراشوت مزودين بمصطلحات فخيمة وكلام يُنسي بعضه بعضا، لم يبرع أردوغان في حكم تركيا إلا لأنه أجاد من قبلها حكم إسطنبول الذي كان رئيسا ناجحا لبلديتها، ومن خلالها كوَّن رصيده لدى الناس الذين يتناقلون عنه قصصا كالأساطير بدءا من تعامله مع مشاكل القمامة والمجاري، ووصولا إلى تعامله الحضاري مع العاهرات المرخص لهن بالعمل في شوارع حي بي أوغلو وكيف نجح في إقناع كثيرات منهن بترك العمل من خلال تقديم حوافز لهن ليعملن في مهن أخرى محترمة. لا أدري مامدى صدقية هذه الحكايات لأنني لم أجد للأسف باللغة العربية مصدرا موثقا يتحدث عن تجربة أردوغان وحزبه في العمل البلدي، وأتمنى أن يقوم أحد المتخصصين بعمل بحث موسع عن هذه التجربة لكي تستفيد منها القيادات الشابة التي ترغب في أن يكون لدينا عمل حزبي مختلف وحقيقي يليق بثورة يناير العظيمة، فلا نعيد إنتاج أحزاب الثلاث الورقات التي ترعرع قادتها على حجر ضباط أمن الدولة.

ونحن في انتظار أردوغان سأل أستاذنا فهمي هويدي نائب محافظ القاهرة الباحث المرموق سمير مرقص عن اسم المسئول عن ملف الزبالة في حي مصر الجديدة الذي انتشرت فيه الزبالة بشكل كبير، ولأن الشيء بالشيء يذكر، دعوت الأستاذين فهمي وسمير ورفاق المائدة لزيارة أكبر معرض للزبالة المفتوحة يوجد في شارعنا القريب من مجلس الوزراء والذي لا يمر عليه الدكتور

عصـام شـرف بالتأكيـد، ثـم حكيت لهـم عن زيـارة قمت بهـا إلى الزقازيـق بعـد غياب شـهر، وكنت آمل أن أرى لمسـات ثورية على شـوارع المدينـة قـام بهـا صديقنـا المحافـظ الدكتور عـزازي علي عـزازي الذي جاء من قلب الثورة، فوجـدت أن التغيير امتد بالفعل إلى أكوام الزبالة التي صارت أطول ربما تماشيا مع طول المحافظ، وأعتقد أنها لو استمرت بهذا الشـكل فسـتصبح خلال أشهر بطول مبنـى المحافظـة. لم يكن عندي شـك في أن الدكتـور عزازي يبذل أقصى جهده لأداء واجبه، وهو ما تأكد عندما قال الأسـتاذ سمير إن جميع المحافظين بل والحكومة نفسها مظلومة في هذا الملف، لأن العقود التي تم توقيعها في عصر مبارك مع شركات جمع الزبالة هي عقود إذعان أقرب ماتكون إلى عقد هيئة قناة السـويس الذي وضعه الاحتلال، وأن محاولات قانونية مكثفة يتم بذلها للتخلص من هذه العقود دون تكبيد ميزانية الدولة خسـائر فادحة في دفع التعويضات، وهو مايثبت كيف كان نظام مبارك قادرا على حماية الفساد بالقانون الذي إن أسـقطته الثورة فإنها ستكون مجبرة على تحمل تبعاته أمام المؤسـسـات والمحاكم الدولية. قلت للأسـتاذ سـمير: ربنا يطمنك ياشـيخ، لـم يعـد لدينـا الآن أمـل إلا أن ننتظر خطابا لعصام شـرف يقول فيه: «ديليـسيـس ديليـسيـس»، لكي ننقض على شركات جمع الزبالـة ونقوم بتأميمها ونجمع نحن زبالتنـا بأيدينا. ضحكنا وكانت ضحكاتنا مجروحة لأننا كنا نتحدث عن فشلنا في جمع الزبالة بينما ننتظـر اللقـاء برئيـس وزراء دولة حققـت في الربع السـنوي الأخير أعلى نسـبة نمو في العالم متسـاوية في ذلك مـع الصين، وقد كانت

قبل عشر سنوات فقط تشكو مثلنا من فشلها في جمع الزبالة، فاللهم لا اعتراض، اللهم ديمقراطية.

أما لهذه الفلول من آخر؟ سؤال أسأله لنفسي كلما حضرت اجتماعا رسميا أو خاصا لأجد أغلب المتصدرين لحضوره من فلول النظام المباركي اللعين، وأغلبهم لم يكونوا مشاركين في فساده وقمعه بالصمت والتواطؤ فقط، بل كانوا من المساندين بالقول والرأي والجهد. دعني أعترف أنني أشعر بتناقض عندما أتحمس للمطالبة بعزل قيادات الحزب الوطني عن الحياة السياسية، عندي يقين أن هؤلاء لو خاضوا معركة انتخابية تتوفر لها ضمانات الرقابة القضائية والحقوقية والشعبية والدولية فسينهزمون شر هزيمة وسينكشف حجمهم الطبيعي دون أن ينالوا فرصة الظهور بمظهر المقموعين المحرومين من حقوقهم السياسية. لا أستطيع أن أنسى كيف كانوا ينجحون على الحركرك في ظل تزوير مفضوح ومال مسفوح وأمن سنكوح، لذلك أثق أن إرادة ملايين الثائرين ستحاصر كل هذه الوسائل وستمنعهم من اللعب بها في المعركة الانتخابية، لكنني كلما شاهدتهم يتقافزون في هذا المحفل أو تلك المناسبة، وهم يتحدثون عن تضحياتهم من أجل الوطن وكراهيتهم للنظام المباركي، وجدت أن ذلك اليقين يختفي تماما لتحل مكانه مخاوف من قدراتهم الشيطانية على تبديل الوشوش واللعب بالسلطات الثلاث وتتملكني رغبة عارمة ليس فقط في عزلهم سياسيا، بل في أن يلقوا مصير «المخلفين في الأرض» الذين تحدث عنهم القرآن الكريم ولكن لمدة ثلاثين عاما، ولست واثقا أن الحال سينتهي

بأغلب هؤلاء نادمين على أخطائهم كما ندم الثلاثة الذين خلفوا والذين أتقدم لهم بخالص الاعتذار للزج بمقامهم الرفيع في تشبيه مع أصحاب مقام وضيع كقادة الحزب الوطني.

لست ضد حق الإنسان في أن يحضر حفل عشاء فيأكل فيه كما يحلو له، ويبرطع بين الحاضرين موزعا سماجاته عليهم، لكنني أطالبه فقط بأن يجعل عنده دما يفترض أنه ورثه من دماء الذين خلفوه، فلا يجرؤ على التحدث باسم ثورة قامت لتطهير الحياة السياسية من أمثاله، وكان يتمنى لها الفشل لكي تستمر مصالحه ومكاسبه. كل هذا قلناه لأنفسنا ونحن نشاهد أسئلة بعض رموز النظام المباركي وهي تنهال على رجب طيب أردوغان تافهة ومخجلة وكاشفة عن رغبة صاحبها في أن يقول للجميع: «أنا هنا لازلت قادرا على التواجد رغما عن أنوفكم، ولن أمنحكم فرصة الراحة من وجهي أبدا». قالت الأستاذة أهداف سويف معلقة: «يبدو أن الثوار يمتلكون شجاعة إسقاط النظام، لكنهم لا يمتلكون شجاعة الحصول على الميكروفون التي يمتلكها الفلول». عندما وصل اثنان من الثوار أخيرا إلى الميكروفون بعد طول عناء، قاما بتوجيه سؤالين للرجل، كان كل منهما بمثابة توريطة سياسية أفلت منها ببراعة. كان السؤال الأول عما أسماه السائل الجمهورية الثانية التي بدأ أردوغان الآن في إرساء دعائمها وهو يواجه العسكر، وكيف يمكن أن تستفيد مصر من هذه التجربة. أردوغان بادر إلى نفي وجود أي خلافات بينه وبين المؤسسة العسكرية التي يقدرها الأتراك نافيا أن تكون هناك أصلا جمهورية ثانية من أساسه. قال

الدكتور عمرو الشوبكي المتخصص في الشأن التركي لصاحب السؤال: لو كان أردوغان قد وافقك أو حتى صمت على ماقلته لتعرض لأكبر أزمة سياسية في تاريخه، فالحديث عن جمهورية ثانية خط أحمر في تركيا التي يقدر شعبها مؤسس جمهوريتهم مصطفى كمال أتاتورك ويفخرون بها وبه. أخذت أتأمل في إجابة أردوغان السياسية الحكيمة التي تبدو مهادنة لقادة الجيش التركي، وأتذكر صورته الشهيرة التي نشرتها وكالات الأنباء وهو يمشي منتصب القامة وخلفه يسير قادة المؤسسة العسكرية بعد معركة سياسية خاضها معهم انتهت بانتصاره مستندا إلى إرادة شعبية كاسحة. قلت لنفسي: هذا رجل تعلم من تجاربه جيدا، وأصبح يدرك أن أي معركة سياسية شائكة لا يمكن حسمها بنبل الشعار أو عظمة الأهداف، بل لابد لها من عمل شاق وسط الناس. لا تتحدث عن رغبتك في تغيير الواقع، اعمل على تغييره دون أن تتحدث كثيرا عن رغباتك، وعندها فقط سيتغير الواقع.

هل تعلم أن السؤال الذي تم توجيهه لأردوغان حول المرجعية الإسلامية لحزبه وأقامت إجابته الدنيا ولم تقعدها، لم يكن المقصود منه توريط أردوغان قط، بالعكس فقد كان سائله الكريم الدكتور محمد أبو الغار يطلب منه بحسن نية أن يوجه نصيحة إلى زملائه من أصحاب الأحزاب المصرية ذات المرجعية الإسلامية، وكان طبيعيا لمن يعرف تركيا جيدا أن يبادر أردوغان فورا إلى نفي أن يكون حزبه ذا مرجعية إسلامية أصلا، لكي يستطيع حزبه أصلا أن يكمل تصدره للساحة السياسية، مؤكدا على احترام حزبه للنظام العلماني الذي

تقـوم عليـه الدولة التركية، وهو ما اكتفت أغلـب الصحف بالتركيز عليه والحديث عن خيبة أمل التيار الإسلامي الذي هلل لأردوغان، وكان الأولـى بالجميـع أن ينقلوا نـص إجابة أردوغـان التي جاءت شـديدة العمق وتحمل في طياتها معاني كثيـرة للراغبين في التفكير والتغييـر. تحـدث أردوغان عن وجود معـانٍ متعـددة للعلمانية في العالـم تختلـف من بلد إلـى آخر، ومر عليها سـريعا، مشـيرا ضمن كلامـه إلى مفهوم العلمانية الشـاملة والعلمانيـة الجزئية الذي كتب عنه أسـتاذنا الدكتور عبد الوهاب المسـيري كتابا من جزءين لم يهتم أحد بتبسـيطهما وتقريبهما للناس، ثم قال إن حزبه عندما قرر اختيار مفهوم يناسبه للعلمانية اختار المفهوم الموجود في الدستور التركي وهو أن تقف الدولة على مسافة واحدة من كل الأديان، لكن ذلك لا يعني نفي الهوية الإسـلامية لقادة الحزب فهم مسلمون كغيرهم من الأتراك، لكنهم لا يحكمون باسم الإسلام، لكي لا يتحمل الإسلام مسئولية أخطائهم، بل يتحملونها هم كبشر.

أخذت أسـتمع إلى حديث أردوغان وأنـا أتذكره وهو يقف قبل سنوات ملقيا خطبة حماسية جلجل فيها بأبيات شعر تحن إلى تركيا الإسـلامية وتطالب المآذن بأن تتحدث، ليدخل بسـبب خطبته إلى السـجن، وأخذت أقارنه بأردوغان الذي أراه الآن، تذكرت أنني لم أصـادف طيلة علاقتي بتركيا التي يبلغ عمرها سـبع سـنوات مواطنا تركيـا يحـب أردوغـان إلا وقـال لي إنه يحبـه لأنه «مسـلم من أهل التقـوى وزوجته محجبة ويعرف أن سـرقة المـال العام حرام»، ولم أصـادف مواطنـا تركيا يعارضـه إلا وقال لـي إنه يكرهـه لأنه يتاجر

باسم الدين ويضحك على البسطاء ويتمسكن حتى يتمكن فيعتدي على حريات الناس ويسقط العلمانية التي ناضل أتاتورك من أجلها. لكن أردوغان لم يتوقف عند أقوال محبيه أو كارهيه، بل واصل هو وقيادات حزبه العمل وسط الناس، لاعبين على مساحة المسكوت عنه كما يجب لسياسي أن يلعب بذكاء، مترفعين عن الدخول في متاهات التفاصيل، ومتعلمين من دروس الماضي التي أكدت لهم عبث مناطحة صخور الواقع الراسية، ومؤمنين بالقاعدة الشرعية التي تؤمن أنه أينما وجدت المصلحة فثم وجه الله.

قالها جل من قائل، وسأظل أرددها دائما: وأن ليس للإنسان إلا ما سعى.

القاهرة - يونيو ٢٠١١

لقطات تغيظ من بلاد الإنجليز

(١)

لو قلت لك إنني وصلت إلى مطار العاصمة البريطانية فلم أجد موحدا بالله ولا مشركا به يرتدي كمامة تقيه من شتى فيروسات الإنفلونزا، لقلت لي: قديمة، اكتب غيرها. فأنت بالتأكيد قرأت لكل الكتاب الذين سافروا خارج مصر منذ أن اندلعت هوجة إنفلونزا الخنازير وحكوا لك أنهم لم يجدوا أحدا في مطارات العالم المتقدم يرتدي كمامة، ولم يصطدموا قط بأناس يشخطون وينطرون في المسافرين ويعاملونهم كأنهم جربانون سيدنسون مجتمعنا المعقم الذي لم تدنس الفيروسات نقاءه بتاتا.

قرأت مثلك هذا الكلام ولذلك لم أرتدِ الكمامة عند وصولي إلى مطار هيثرو، مكتفيا بوضعها في حقيبتي والقبض عليها بيدي لأخرجها سريعا مع أول عطسة تداهمني، لولا أن نظرات رجل أمن مرتاب جعلتني أخرج يدي من الحقيبة. لم نستطع أنا وباقي القادمين

مـن القاهـرة أن نخفي دهشـتنا من عـدم وجود أي مظاهـر توتر ولا تربص بنا، راكب لا يبدو أنه محدث سفر سألني: «هم مش هيعدونا علـى الكاميرا الحرارية؟»، تطوعت وأفتيت له أن أناسـا «لؤما» مثل الإنجليز سيحطون الكاميرا لنا حيث لا نحتسـب. نظر لي نظرة مريبة فهمت منها أن باله راح لبعيد فقطعت الحوار، فجأة انخرطت طفلة في نوبة سـعال حاد جعلتني أرجع إلى الخلف منتظرا أن تخرج من أرضيـة المطـار فرقة حجـر صحي مدججـة بأحدث أجهـزة العزل الطبـي، لكننـي لـم أجد إفرنجيا يعير سـعال الطفلـة المتواصل أدنى «أتينشـن». كنـت متوتـرا لأنني قـرأت على متـن الطائـرة تقريرا في صحيفـة الأوبزرفر يحذر الإنجليز من انتشـار الفيروس الذي لازلنا نفضل تـسـميته بإنفلونزا الخنازير تبريرا لذبحنا الفوضوي لها، خلفه مباشـرة تقريـر عن اكتشـاف ٣ آلاف حالـة خطأ في نتائـج التحاليل الطبيـة في بريطانيـا، كدت أصرخ فـي الطيار: «لـف وارجع تاني.. بريطانيا باظت»، لولا أن عيني وقعت على سـطر في التقرير يذكرني أن بريطانيا تشـهد كل عام ملايين التحاليـل التي يجريها مرضى من أنحاء العالـم، وأن عقوبات صـارمة تتهدد المتسببين في تلك الأخطاء التي رصـدتها هيئة حكوميـة دون أن يصـرخ فيها أحد أن تتقي الله في سمعة بريطانيا وطبها.

أمضيـت فـي لنـدن عشـرة أيـام بلياليهـا، لـم أر كائنـا بشـريا أو حيوانيا يرتدي كمامة، لم أقرأ سـطرا يحذر من التردد على المـسـارح والـسـينمات والمتاحـف والمكتبـات والمطاعم والمقاهـي وكلها مزدحمـة طيلـة الوقـت، تقـرأ كل يوم أخبـارا عن إصابـات جديدة

بالفيروس، الصنداي تايمز نشرت في ركن منزوٍ أن العدد الفعلي للمصابين به يصل إلى ٤٥ ألف بريطاني، ومع ذلك تسير الحياة ويعود الماضي ولم يفتح أحد سيرة المقابر الجماعية أبسليوتلي. لا تقل لي إن الإنجليز لا يصابون بالهلع الذي نعيشه لأنهم يمتلكون كاميرات متصلة بالأقمار الصناعية ترصد «المتفيرسين» في الشوارع، أو إنهم يمتلكون إسعافا طائرا ينقذ حتى ملايين السائحين المتدفقين على بلادهم. لا يا سيدي، كل الحكاية أن المرض عندما يتفاعل مع مركب الجهل زائد سادس أكسيد الفساد يسبب الهلع الذي نعيشه. أما العلم عندما يجتمع مع الثقة فيمن يحكمك عندها يمكن أن تتعاطى مع أعتى الأوبئة لو أردت.

البلاد المتحضرة لا تعيش هلعنا، لأن غالبية أهلها حسموا من زمان بديهيات من نوعية أن الخدمة الصحية حق لكل مواطن وليست منحة من الزعيم الملهم، والنظافة واجب على كل مواطن يقع تحت طائلة القانون إذا لم يلتزم به، لذلك لن تجد هناك شعارات: هيا ننظف بلدنا، ولن تجد حكومات معفنة تسمح بترعرع الناس وسط الزبالة، لن تضطر لقضاء حاجتك في الشارع لأنك لم تجد حماما عاما نظيفا ومتحضرا وبملاليم، لن تجد مطعما يستمرئ التانة لأنه مظبط مع مفتشي التموين والصحة، لن تجد من يبيع لك لحما فاسدا على أنه كفتة ثم يستأذنك لكي يصلي العصر، لن تجد من ينفث دخانه في وجهك لأنهم خلاص اتفقوا على أن من يرغب في الموت عليه أن ينبذ في الشارع لكي لا يميت معه الآخرين. لست بحاجة لتذكير أحد ألا يسعل في وجهك أو أن يرمي

مناديله فور استخدامها أو أن يغسل يديه باستمرار أو أن يذهب إلى الطبيب إذا ظهرت عليه أعراض المرض دون أن يدع من هب ودب يفتي له، هم أخذوا كل هذا في المدرسة من زمان وعاشوا به وعليه، والغريب يا أخي أنهم فعلوا ويفعلون كل ذلك دون أن يعلقوا أبدا اللافتات التي نعلقها لدينا «النظافة من الإيمان». حديث شريف.

(٢)

كنت مارا بالعاصمة البريطانية لندن متوجها إلى نيويورك، عندما وجدت الصحف البريطانية عن بكرة أبيها تزف إلى المواطن البريطاني بشرى سارة يفترض بها أن تشجعه على دفع ضرائبه بقلب جامد وأسارير متهللة. كنت قد أنهيت قبل سفري دفع ضرائبي، فتذكرت أن كل ما كنت أفكر فيه طيلة وقت تحضير أوراق الضرائب هو أن تكون أوراقي مكتملة لا ينقصها شيء، ولم ينشغل بالي ولو للحظة بأين ستذهب الضرائب التي أدفعها، لأنني كغيري أدفعها اتقاء لشر الحكومة وليس رجاء لخيرها الذي لا يصيب مستحقا أبدا. ضحكت عندما فكرت في ما يمكن أن أتلقاه من رد لو قررت أن أسأل مسئولي المالية في بلادنا عن ضرورة حصولي على تفصيل ممل بمجالات الإنفاق التي ستذهب إليها ضرائبي، واكتفيت بقراءة تفاصيل ما قرر مسئولو بريطانيا أن يفعلوه لمواطنيهم، بحيث أصبح من حق كل مواطن دافع للضرائب أن يحصل على بيان تفصيلي يوضح له أين تذهب أموال ضرائبه، يعني مثلا إذا كان دخله ١٥

ألـف إسـترليني فـإن الضريبة التي تؤخـذ منه سـتكون ٢٤٣٨ و١٢ بنس، يتلقى في خطاب رسمي تحديدا قاطعا بكل مجالات الإنفاق التي سـيتم تقسـيم المبلغ عليها. قررت من باب الفضول أن أعرف ترتيـب تلـك المجـالات التي يتـم توجيه أمـوال دافعـي الضرائب الإنجليـز إليهـا فوجدتهـا مرتبة كالآتـي: الدين الداخلـي ـ الضمان الاجتماعـي وينقسـم إلـى خانـات هي ضمـان كبار السـن وضمان المرضى والمعاقين ثم ضمان الأسـر والأطفال ـ مشـاريع الإسكان ـ إعانـات البطالـة، ثم بعد ذلك تأتي مجـالات الإنفاق على الصحة ثـم التعليم ثـم البنية التحتيـة والزراعة ثم الصناعة ثـم النقل ثم بعد ذلـك الأمـن. واخد لـي بالك إنت، يحـدث ذلك في بـلاد يتهددها خطـر الإرهاب ومع ذلك فهي تضع الأمن بعد كل هذه المجالات، أمـا نحن فنضـع الأمن أولا قبـل التعليم والصحة فـلا نحن حصـلنا عليـه ولا نحن طلنا تعليما ولا صـحة. لاحظ أن الأمن هنـاك تنقسـم مصاريفـه إلـى أربعـة مجـالات: البوليـس والمحاكـم والسـجون والمطافـئ، فتحقيـق العدل هناك أهم مـن وزارة العـدل، بعد ذلك تتوجـه الضرائب بشـكل أقل إلى تسـديد نفقـات الإدارة الحكومية والخدمات المحلية ثم الثقافة والشـئون الدينية (يعتبر المتحضرون هناك الإنفاق الضئيل سـبة في جبين الحكومة وإن كان البعض يرى ذلك حسـنة، لأن الثقافة مسئولية اجتماعية تضامنية وليسـت مسئولية حكوميـة فقـط)، ثم أخيـرا وفي ذيـل القائمـة تأتي مجـالات البيئة والعون الخارجي ومبالغ المسـاهمة في الاتحاد الأوربي. تخيل أن كل مواطـن يحصل كل عام علـى قائمة تفصيلية توضح له كم ذهب

من جيبه إلى تلك المجالات، وتخيل أن الهدف من كل ذلك كما أوضح بعض القريبين من وزير المالية أوزبورن هو أنه بدأ يفكر في فرض ضرائب جديدة، ولذلك فهو يرى أن معرفة دافع الضرائب أين سيذهب كل بنس يدفعه ستؤدي إلى زيادة دفع الضرائب وليس العكس. لن أجرؤ على المطالبة بأن يصبح من حقنا أن نعرف أين تذهب الضرائب التي ندفعها، فأنا رجل حصيف ولن أسمح لك أن تتطاول عليَّ بصوت إسكندراني منغم، لأنك تعلم أن مشكلتنا أصلا أننا لا نعلم أين هي أموالنا ولا كم هي ولا من يملكها ولا بأي أرض نهبت، لذلك نكتفي بالدفع لكي يكفينا الله شر الحكومة، مكتفين بالدعاء على الظالم والمفتري وابن الحرام.

(٣)

برغم أنك في بريطانيا يمكن أن تشتم رئيس الوزراء البريطاني وتصفه بالحمار علنا دون أن تتعرض للعقاب حتى لو قام بشكواك قضائيا، ودون أن تتلقى دروسا وعظية عن العيب والأخلاق والمايصحش وإلا اعتبره زي أبوك، فإنك في نفس الوقت يمكن أن تذهب إلى السجن إذا تطاولت على شخص لا يندرج تحت بند الشخصيات العامة فوجهت إليه تعليقا عنصريا أو متجاوزا لحقوقه القانونية، حتى لو لم يكن ذلك علنا بل كان في موقع للتواصل الاجتماعي، خذ عندك مثلا هذه الواقعة التي هزت الدنيا في بريطانيا مؤخرا حيث يواجه طالب جامعي عقوبة السجن لعدة

أشهر لأنه كتب على صفحته الخاصة في تويتر تعليقا عنصريا يسخر فيه من لاعب بريطاني من أصل إفريقي اسمه فابريس مومبا سقط مغشيا عليه في الملعب وأصيب بأزمة قلبية، فكتب الطالب البالغ من العمر ٢١ عاما تعليقا يسخر فيه منه بشكل عنصري، فقام أحد متابعيه بالإبلاغ عن التعليق للبوليس الذي تحرك للقبض على الشاب وأحاله إلى المحاكمة. المحكمة اعتبرت أن التعليق لا يخص فابريس فقط بل يخص كل متابعي تويتر من السود الذين يمكن أن يتأذوا إذا قرأوا التعليق. الموضوع كبر وبدأ البوليس يحقق في تعليقات عنصرية ضد السود تم كتابة بعضها في بوسطن بأمريكا وتم اتخاذ إجراءات قضائية لملاحقة أصحابها خارج البلاد، بل وبدأ العديد من مستخدمي تويتر أنفسهم باتهام الموقع بالعنصرية لو لم تتخذ إجراءات ضد هذه الكتابات العنصرية. في نفس يوم نشر هذا الخبر قرأت كيف احتفت الصحف بحكم أصدرته محكمة بريطانية بإدانة وسجن رجل عمره ٥٤ عاما لأنه قام بعمل إشارة النازية لجاره الألماني متحرشا به أكثر من مرة، خففت المحكمة العقوبة لأن الجار الألماني طلب ذلك وقال إنه لا يريد الانتقام. لكن قرار الإفراج عنه جاء مشروطا بضرورة ألا يستخدم الموسيقى بصوت عال ولا يهدد جيرانه ولا يتحرش بهم وإلا تم إيداعه في السجن. وهكذا في حين يكفل لك المجتمع أقصى درجات الحرية لكي تعبر عن نفسك في مواجهة من تشعر أنهم يقصرون في حقك من حكام ومسئولين وبأقسى العبارات والأفعال كرمي البيض

والطماطم، فإنه يجبرك على أن تقف بكل الاحترام أمام حقوق الآخرين فلا تقوم بانتقاصها بالتجريح والتكفير والتخوين.

(٤)

لقطتي الإنجليزية الأخيرة عن فكرة حضارية بديعة أتمنى أن نراها قريبا في إحدى القنوات التلفزيونية المصرية التي يتولى مسئوليتها أناس متحضرون لديهم دم وإحساس، لعلنا نتعلم كيف نغير منهجنا في التعامل مع ملايين المواطنين المصريين الذين يتحدون الإعاقة بشجاعة.

شوف يا سيدي، كنت أجلس إلى جوار ابنتي الصغيرة وهي تشاهد قناة أطفال بريطانية شهيرة اسمها «سي بيز» أغلب برامجها مخصصة للأطفال تحت سن السابعة. كنت مشغولا بالقراءة عندما سمعت ضحكات ابنتي تتعالى مثيرة البهجة، نظرت إلى الشاشة لأشاهد ما أضحكها، ففوجئت بأن المذيعة التي تقدم البرنامج الذي تشاهده ابنتي فتاة مقطوعة اليد وتظهر على الشاشة بذراعها المقطوعة دون حتى أن ترتدي جهازا تعويضيا. أعترف أن المشهد خضني في البداية، فقمت فورا بتغيير القناة لكي لا تتأذى ابنتي التي لم تكمل الأعوام الأربعة من عمرها. هكذا تصورت قبل أن أجد ابنتي تصرخ في وجهي قائلة: «إيه يا بابا مش شايفني باتفرج! مش تستأذني الأول!»، قبل أن تخطف مني الريموت كونترول وتعيد

تشغيل التلفزيون وتتابع الفرجة باستمتاع شديد على المذيعة التي كانت تتحدث بانطلاق شديد وتدير حوارا مع الأطفال الذين يصطحبونها في البرنامج دون أن يشير أحد إلى إعاقتها أو يتعامل معها على أن بها شيئا غير طبيعي. كان المشهد أعلى بكثير من فهمي وإدراكي، وبدلا من أن أصمت وأراقب ارتديت ثياب الواعظ، وحرصت على إيصال «المورال» مباشرة إلى عقل ابنتي الذي أعشق الوصاية عليه ككل أب صالح، قلت لها: «شايفة يا حبيبتي المذيعة الغلبانة دي يا عيني إيدها مقطوعة إزاي عشان نحمد ربنا إنه أنعم علينا...».

لم أكمل جملتي لأن زغدة من زوجتي أسكتتني، قبل أن تطلب مني أن أخرج إلى خارج الغرفة لكي تربني شيئا مهما، وعندما ابتعدنا عن أسماع ابنتنا، قالت لي وهي تتميز غيظا: «مش ممكن يعني لازم تبوظ اللي الناس المحترمة دي قررت تعمله ومن غير ما حد يطلب منك.. برضه مصمم على إنك تتعامل مع الست على إنها عَجَبة ومادة للشفقة.. بينما هم بيعودوا الأطفال إنهم يتعاملوا معها على إنها شخص عادي طبيعي ومش محتاجة معاملة خاصة». شعرت بالخجل من نفسي لأن هذا المعنى النبيل الراقي كان أعلى بكثير من مستوى إدراكي وتعليمي، قلت لها: «أنا آسف ماتنسيش إني ابن ثقافة تعودت ألا ترى الذين يتحدون الإعاقة إلا في برنامج كلام من دهب على خلفية موسيقى حزينة»، لم تستهوها الجملة التي تصورتها لطيفة ولازمة لتبرير موقفي السخيف، فتركتني وعادت إلى حيث تجلس ابنتي ضاحكة وسعيدة أمام شاشة التلفزيون

وهي تستمتع بأداء المذيعة الرائعة خفيفة الظل. أما أنا فقد وجدتني أسترجع في ذهني عشرات الرسائل المريرة التي انهمرت عليَّ في العام الماضي عندما كتبت اصطباحة عن المعاناة التي يعيشها المواطنون الذين يتحدون الإعاقة في مصر. لست محتاجا لأن أذكرك الآن بتفاصيل تلك المعاناة التي ما إن تذكرت بعضها حتى وجدتني أنهمر في البكاء. بعد قليل وجدت ابنتي واقفة فوق رأسي وهي تسألني: «بابا بتعيط ليه؟»، قلت لها مرتبكا: «لا ما فيش أصلي إفتكرت واحد مات كنت باحبه قوي»، قالت لي: «إيه هو عمو فلان مات؟»، وذكرت اسم أعز أصدقائي، قلت لها: «لا يا حبيبتي بعد الشر عليه.. أنا افتكرت واحد اسمه الإمام محمد عبده.. لما جه زينا هنا قال جملة حلوة أوي: وجدت هنا إسلاما بلا مسلمين وتركت في بلادي مسلمين بلا إسلام». نظرت ابنتي لي باستغراب شديد لها كل الحق فيه، فسارعتُ إلى تغيير الموضوع قبل أن أسبب لها مزيدا من الارتباك، وقلت لها بتأثر: «بس متشكر إنك جيتي تتطمني عليا.. ارجعي أتفرجي يا حبيبتي على البرنامج»، فقالت لي بهدوء شديد: «أنا ما كنتش جايه أطمن عليك.. أنا كنت رايحه أعمل بيبي»!

بين القاهرة وبريطانيا ٢٠٠٩ ـ ٢٠١١

أبو موتة البريطاني!

(١)

لسنا وحدنا الذين نُحَوِّل القتلة إلى أبطال، ولسنا وحدنا أيضا الذين يُلامون على مسئوليتهم في صناعة القتلة وإن كنا ضحايا لهم. سواء كنت تخالفني رأيي ذلك أو تتفق معي فيه. دعني أحكِ لك عن هذه الحادثة التي وقعت في بريطانيا وتصادف أن عايشتها بنفسي وهي تهز البلاد وتشغل العباد.

قبل شهر بالتمام والكمال، خرج من السجن بودي جارد رد سجون اسمه راؤول موتِ (وللاسم بعد كتابته باللغة العربية معنى غير متوفر عند كتابته بالإنجليزية)، وكان قد أمضى عقوبة السجن لفترة غير طويلة بسبب اتهامه بالإيذاء البدني لأطفاله. كانت صديقته وأم بنته قد قالت له وهو مسجون إنها انفصلت عنه وارتبطت بضابط بوليس، فعزم راؤول على أن ينتقم منها ومن حبيبها الجديد فور خروجه، وأسَرَّ بذلك لبعض رفاق سجنه الأندال الذين أبلغوا

عنه الإدارة التي أبلغت بدورها مسئولي الشرطة في المقاطعة التي يسكن فيها راؤول، وبرغم ذلك البلاغ الاستباقي فقد تمكن راؤول بعد خروجه من السجن أن يشتري سلاحا في بريطانيا التي لا يحمل فيها ضباط الشرطة أساسا أي سلاح ناري، وعاد إلى بلدته لينتقم، فأطلق النار على صديقته وقتل حبيبها، وخرج بعد ذلك ليطلق النار على أول ضابط بوليس يقابله، تصادف أنه كان ضابطا يجلس في سيارة الشرطة على الطريق يراقب السيارات المخالفة للسرعة. أطلق عليه راؤول النار بدم بارد ثم بعدها بعث برسالة قصيرة للشرطة (شوف برضه فرق التكنولوجيا مع المجرمين) يقول فيها إنه لن يستريح حتى يقتل أكبر عدد ممكن من رجال البوليس، جزاء ظلمهم له وحبسه على جريمة يقول إنه لم يرتكبها ولقيام أحدهم بأخذ حبيبته منه.

وبعد رسالته القصيرة انطلق راؤول موت ـ أو أبو موتة البريطاني كما اخترت أن أسميه ـ هاربا في البراري والغابات المحيطة لتبدأ دون مبالغة أكبر عملية مطاردة في تاريخ بريطانيا لرجل مسلح. بعد إعلان هروبه خرج علينا في التلفزيون بيان مهذب من الشرطة ينبه المواطنين المقيمين في مقاطعة نورثنبري وماحولها إلى أنهم قد يلاحظون أن رجال الشرطة يحملون أسلحة نارية، ويعتذرون عن الانزعاج الذي قد يحدثه ذلك في نفوس المواطنين الذين يأتي هذا الإجراء لحمايتهم. لعلك لا تعلم أن أفراد الشرطة في بريطانيا لا يحملون أسلحة نارية، بل يستخدمون العصي الكهربائية وما شابهها من وسائل الردع «الدايت»، وفي الظروف القصوى

يستخدمون المسدسات التي تحتوي على الطلقات المطاطية، وسأترك لك هنا التعليق المناسب.

وفي حين استمر البوليس في مطاردة راؤول موت وتعقب أصدقائه الذين يمكن أن يساعدهم، بدأت الصحافة ومحطات التلفزيون تتعقب سيرة موت، لتكتشف أنه كان يا ولداه ابنا لأب مجهول، وأن الست أمه التي رفضت أن تُقِرّ باسم أبيه ثم هجرته سنين طويلة عندما طلبوا منها أن تعلق على ما فعله قالت للصحفيين ما معناه: «بلا نيلة يغور.. نفسي أشوف موت ميت دلوقتي». أما زوجته الأسبق وأم عياله فقد قالت عنه كلاما أظهره بصورة وحش بشري حقيقي، ناهيك عن نشر صور لقتيله ولصديقته والضابط الذي أطلق عليه النار وهما في حالة صحية حرجة، وماجاء هذا النشر المكثف إلا بعد أن بدأت وسائل الإعلام تلاحظ أن موت تحول إلى بطل في أذهان الناس، وأن أناسا كثيرين يتعاملون معه بوصفه ضحية للمجتمع، ولا يخفون تعاطفهم معه في مواجهة البوليس خاصة أنه ترك رسالة لدى أحد أصدقائه يطمئن فيها الجمهور أنه لن يستهدف أحدا من الناس بل رجال البوليس فقط، واضطرت السلطات أن تقطع الإنترنت عن المنطقة التي تتم محاصرته فيها. تذكر أنه صحيح بلطجي ولكنه بلطجي إنجليزي متعلم أحسن علام ومدرب على التعامل مع التكنولوجيا، بل ولديه عقبال أملتك صفحة على الفيس بوك كان يقوم بتحديثها أولا بأول حتى جعلوه «ديسكونكت» رغما عنه، لكن ومع ذلك كانت الصحف تصله بطريقة ما، اكتشفوا ذلك بعد أن غضب أبو موتة لما جاء في

الصحف عن سيرته الشخصية المهيبة، فترك في الخيمة التي كان يختبئ فيها في الغابة شريطا مسجلا داخل كاميرا يهدد فيها البوليس والصحافة بأنه سيقتل شخصا عاديا مقابل كل معلومة مسيئة تنشر عنه، وهو ماجعل البوليس يطلب من الصحافة سرا أن تتوقف عن نشر ما يغضبه، وتعلن للجمهور أن موت قد أصبح خطرا على الناس العاديين. وقتها كنت في مدينة أدنبره عاصمة إسكتلندا والتي تعتبر قريبة نسبيا من شمال إنجلترا حيث هرب موت سارحا في البراري، ولأن عقلي مدرب دائما بحكم النشأة والعِشرة مع المصائب على تخيل أسوأ السيناريوهات، أخذت أسأل كل من حولي بلهفة عن ما إذا كان موت يمكن أن يهرب إلى إسكتلندا القريبة ويقوم بمجازر جماعية لقتل الأبرياء ردا على ما لحق به من إهانات، فتحولت إلى محط سخرية كل من سألته، ووجدت لدى الجميع على اختلاف مستوياتهم الاجتماعية والثقافية ثقة عمياء في أن موت رجل طيب وابن حلال ومن أحفاد روبن هود، وأن ما قاله عنه البوليس ليس سوى أكاذيب لتحطيم شعبيته لدى الناس.

---

(٢)

ببساطة الشعوب التي تعرف ربنا بحق وحقيق دون تدين شكلي ولا شيوخ فضائيات ولا عبودية مختارة، لا تحتاج لمن يذكرها أصلا بأن الكذب خيبة والصدق منجاة وأن الكذاب هيروح النار،

لأنها قادرة بإرادتها الحرة على أن تجعل الكذاب يعيش الجحيم في الدنيا قبل الآخرة.

كان المشـهد مثيرا للإحراج، ملايين الجنيهات الإسترلينية تُنفق علـى مـدى أيام للبحث عن قاتـل هارب، طيارات اسـتطلاع حربية حديثة تحـاول رصد موقعه في الغابات المحيطة ببلدته، فرق بحث مدربـة علـى أعلى مسـتوى، قناصون تم اسـتقدامهم من إسـكتلندا وويلـز للمسـاعدة، ومـع ذلك لـم يظهر علـى الناس شـحط كثيب الطلعة ليقول لهم كاذبا إن الموقف تحت السـيطرة والأمن مسـتتب بفضل توجيهات السـيد الرئيس الـذي يتابع الموقف لحظة بلحظة، بـل كانت هنـاك مصارحة كاملة للناس بالفشـل الذريع الذي حققته الأجهـزة الأمنيـة في العثور علـى القاتـل الخبير بالمنطقـة، لدرجة القول بأن مطاردته قد تستمر لأشهر كاملة.

مهمـة التعامـل مـع أجهـزة الإعـلام لـم يسـتقدم لهـا خبـراء مخصوصـون فـي الكـذب مـن العاصمة الأم، بـل تـم إيكالها طبقا لمبدأ التخصص لرئيسـة الشـرطة فـي المقاطعة التـي أصبحت بين يـوم وضحاه أشـهر شـخصية في بريطانيـا كلها، الملايـين أصبحوا مدمنيـن لمؤتمراتها الصحفيـة التي يتجلى فيهـا برودها الإنجليزي المبين الذي تكسـر حدته مسـحة كوميدية نابعة مـن اللون الأخضر الجرجيري الذي تدهن به جفنيها على طريقة الفنانة سـميحة توفيق في مسـرحية ريا وسكينة.

لـم يظهـر على وسـائل الإعـلام كذابو زفـة لكي يعلنـوا التفاف الشـعب صفا واحدا خلف أبناء الشـرطة البواسـل من أجل البحث

عن القاتل اللعين الذي يهدد أمن البلاد واستقرارها، بل على العكس انهالت الانتقادات من كل حدب وصوب على أجهزة الشرطة التي قصرت في التعاطي بجدية مع المعلومات التي جاءتها من إدارة السجن بأن راؤول موت يخطط لعملية انتقام دامية من صديقته وحبيبها الشرطي الذي اتضح أنه راح في الرجلين لأنه لم يكن حبيبها فعلا، بل كان مجرد أداة تهويش أرادت به أن تجعل راؤول يبعد عن طريقها، فرجل البوليس في بريطانيا له هيبة حتى لو لم يكن يحمل مسدسا، هيبة نابعة من دوره في تطبيق القانون وليس من تنطيطه على الخلق. بدأت أسر الضحايا تُحَمِّل الشرطة المسئولية صراحة عما حدث لأبنائها، وبدأت الصحف والبرامج تفتح ملفات الإخفاق الأمني في التعاطي مع المجرمين الخارجين من السجون، وتم اتخاذ الحادث فرصة لمواصلة النقاش الذي يدور في المجتمع منذ فترة حول جدوى نظام العدالة القائم في البلاد، والذي تحولت فيه السجون إلى أماكن يشد فيها المجرمون حيلهم ويكتسبون علاقات وخبرات إجرامية جديدة.

واستمر كل هذا الجدل والنقاش حتى تم أخيرا إعلان التوصل إلى مخبأ راؤول موت ومحاصرته على ضفة نهر قريب من الغابة التي هرب إليها، بدأت محطات التلفزيون تنقل على الهواء تفاصيل المحادثات التي يقوم بها المحاصرون له معه بكل مهنية وأدب، فهو وإن كان قاتلا ابن حرام، إلا أن له حقوقا في محاكمة عادلة. استمرت المحادثات ساعات طويلة حتى جَنَّ الليل على الجميع، ليضع راؤول الفصل الأخير في دراما حياته بأن يصرخ في وجوه

مفاوضيه قائلا: «ليس لي أب.. لا أحد يحبني»، ثم يصوب مسدسه إلى فمه، لتنطلق في الهواء طلقة من بندقية رجل بوليس متوتر، يطلق بعدها راؤول النار على نفسه، ويسقط صريعا، ويتم إسعافه على الهواء إلى مستشفى البلدة، وتبذل محاولات مكثفة لإنقاذه، لكنه يفارق الحياة.

ولأن الشعب البريطاني جاحد كأي شعب يعرف أن الشرطة شغالة في خدمته، لم تتم إذاعة أغانٍ وطنية تحيي صمود رجال الشرطة الأشاوس، ولم تنطلق كلمة شكر لهم على إنهائهم لهذه المهزلة المأساوية التي استمرت أياما بلياليها، بل اندلعت هجمات عنيفة ضد الشرطة لإطلاق الطلقة التي تسببت في أن يبادر راؤول لإنهاء حياته. لم تردح مسئولة الشرطة للمنتقدين على الهواء، بل قالت لهم بكل ثبات: إن الطلقة كانت تحذيرية، وإنه سيتم التحقيق فيما إذا كانت فعلا متسببة في تعجيل راؤول بقتل نفسه أم لا، وأسرة راؤول لم تَستَعرّ من ابنها ولم توجه الشكر للسيد «مدير الإمن» لأنه تخلص من الفرع الفاسد في العائلة، بل طالبت فورا بفتح تحقيق جنائي حول ما إذا كان راؤول قد قتل نفسه أم تم قتله على أيدي البوليس، وعندما ظهر تقرير الطب الشرعي ليقول بعد أيام إنه قتل نفسه، لم تقتنع الأسرة، وقررت أن تقوم بعمل تشريح آخر على نفقتها، فلم يتهمها أحد بإهدار هيبة الدولة، ولا بالتشكيك في نظام العدالة، بل تمت الاستجابة لطلبها بكل هدوء، ليس تفضلا من البوليس ولا سعيا لعدم إثارة البلبلة، بل لأن ما تطلبه الأسرة حق

قانونـي لهـا، وإكرام المقتـول ليـس دفنه واكفِ ماجـورا على خبره، وتشويه سيرته، بل إنصافه، حتى وإن كان مجرما عتيدا.

(٣)

مـات السـفاح راؤول مـوت ودفنه أهله، لكـن بريطانيا لم تدفن مـع جثته صدمتها مما حـدث ولا رغبتها في تأمله والتعلم منه، دون رفع شعار «قضا أخف من قضا»، أو تغليب منطق «كويس إنها جت على قد كده».

فـي كل مكان ثار جدل لا ينقطـع حول ظاهرة تحول راؤول إلى بطل شـعبي، لدرجة أن رئيـس الحكومة طلب من موقع الفيـس بوك إغـلاق صفحـة التضامن معه التـي وصل عدد المشـتركين فيها إلى مئـات الآلاف، خبـراء ومتخصصـون مـن كل المجـالات وفي كل المنتديـات يتحـاورون بكثافـة حول ارتبـاط هذه العدوانيـة الغريبة عـن المجتمع بالكسـاد الاقتصـادي وحالـة الاحتقـان الاجتماعي المصاحبـة لخطة التقشـف التي بدأ الائتـلاف الحكومـي الجديد فـي تنفيذهـا وحول جدوى فلسـفة (المجتمع الكبيـر) القائمة على فكـرة التضـامن الاجتماعـي وأن الإصلاح ليـس مسـئولية الحكومة فقط وهي الفلسـفة التـي يتبناها ديفيد كاميرون ليـس من أجل تبرير فشله في الإصلاح ولا للتغطية على المليارات التي نهبها، في نفس الوقـت تنكشـف كل يـوم حقائـق تَخُـضُّ البريطانيين حـول الواقع المزري لجهاز الشـرطة، من وجهة نظرهم طبعا، وتثار أسـئلة حول

من سيدفع التكلفة الباهظة لعملية مطاردة راؤول، في حين يكشف تقرير رقابي أن هناك ضابطا فقط من بين كل «إتناشر» مؤهل ماديا وتدريبيا على التعامل مع المجرمين خارج سيارات الشرطة، ويُعلن عن خطط حكومية تسعى لإحداث انقلاب جذري في نظامي العدالة والسجون تأسيا بدول أوربية أخرى، في نفس الوقت الذي لا يستغل أعداء الحرية ما حدث لعرقلة قرار حكومي جديد يلغي حق الشرطة في توقيف وتفتيش أي شخص في الشارع دون مذكرة قانونية، وهو قرار كان قد تم استحداثه فضلة خيرنا بعد تفجيرات سبعة يولية الغادرة.

«رأيت هناك إسلاما بلا مسلمين.. وهنا مسلمون بلا إسلام»، هل يمكن أن تجد الآن ودائما تعليقا على هذه القصة أفضل من تلك العبارة التي منذ أن قيلت ونحن على حطة يد قائلها الإمام محمد عبده الذي رحلت من بعده أجيال وأجيال قبل أن تصبح مقولته حزءا من الماضي البائد، ليظل حظنا من التدين «نقابا وإيشاربا ولحية ورنات موبايل ومواعظ زاعقة ونشيجا هستيريا وحمى تكفير»، لكنك لو دخلت إلى دورة مياه المسجد الذي تصلي فيه، ولو نظرت إلى الشارع الذي يطل عليه، ولو تأملت في كل تفصيلة من تاصيل حياتك الخاصة والعامة، لكاد كبدك أن ينفطر وأنت تتمنى أن نكون كالبلاد التي جاء حظها من التدين تحكيما للعقل وتقديسا للصالح العام واحتراما لحرية الفكر ورفضا للفساد وإعمالا لسنن الله في الكون.

«وإنت عايز تقارن نفسك ببريطانيا ولا بأوربا؟ الناس دي فين وإحنا فين؟». كلما جئت لأحد بسيرة العالم المتحضر قال لك هاتين الجملتين وماشابههما من «إستامبات» محفوظة تم تصميمها بإتقان لمنع التقاط عدوى التغيير. وكأننا يجب فقط أن نقارن أنفسنا بالدول التي تلينا في جداول الدول الفاشلة والمتنيلة على عينها، وهي لم تعد كثيرة للأسف الشديد. كأن الخيال جريمة، وكأن الأحلام لا بد أن تكون تعيسة كالواقع، وكأن الله قد كتب على أبناء السكان الأصليين لمصر أن يحلموا طيلة العمر فقط بالستر والنوم بعد العشا، بينما يتطور أبناء القادرين وتتسع مداركهم باتساع قدراتهم وتكبر أحلامهم معهم يوما بعد يوم، ثم يأتي من يقول: «ربنا عايز كده»، وحاشا لله أن يرضى لعباده الظلم إلا إذا قبلوا هم به.

قبل أن تبدأ معرفتي المباشرة بالغرب المستعمِر الحاقد اللعين، كنت أعتقد كغيري من البُلْه أن مدنه هي المدن الفاضلة، وأهله هم المقدسون الأطهار، وقبل تلك المرحلة ولسنوات أطول كنت أعتقد كالبُلْه الآخرين أن مدن الغرب هي مواخير متحركة يضاجع الناس فيها بعضهم في الطرقات وتطير فيروسات الأمراض الجنسية في الهواء، ثم جاء اليوم الذي عرفت فيه الغرب على قدمي سائحا ثم دارسا ثم متأملا ثم مقيما لبعض الأشهر التي لا تكفي لتكوين رأي شامل وكامل عنه، لكنني على الأقل أصبحت أعرف مايكفي عنه، وهو أن مدنه يمكن أن تكون كمدننا وأقذر، وأهله يمكن أن يكونوا كأهلنا وأصعب، فقط لو اختفى القانون، عندما يشعر المواطن

الغربـي أنـه يمكـن أن يفلت من قبضـة القانون يرتكب أشـياء يندى لهـا الجبين، بعضهـا رأيته بعينـي، وبعضها قرأت عنـه مثلك. قد لا تبدو لك هذه النتيجة مذهلة، على الأقل لسـت محتاجا لأن تصرف بنـا من أجل التوصل إليها، لكنها بدت لي مذهلة جدا وأنا أتشبع بهـا يوما بعد يوم، حتـى إنني كلما ازددت معرفـة بالمجتمع الغربي أصبحـت أدرك أن الوصول إلى ما وصل إليه بل وتخطيه وتجاوزه، أمر في مقدورنا وبشـكل أسـرع ممـا نتخيل، فقط لـو غَيَّرنا مفهومنا عـن التديـن، لنحولـه من رضـا بالأمـر الواقـع وتكريـس للتخلف والاستبداد والفسـاد، إلى إعلاء للعقل والحرية والتغيير والإصلاح، وهـي الرسـالة التي يجـب أن يناضل من أجلهـا كل راغب في تقدم هـذه البلاد التي لم يعد أهلها من السـائرين نياما طبقا لتعبير الأديب الكبير سعد مكاوي، فقد توقفنا وبمزاجنا عن السير قانعين بالتجمد فـي أماكننـا، ونحن نكتفـي بالحفر دون أمل في الوصـول إلى القاع ودون أن نحظى حتى براحة النوم.

لندن - ٢٠٠٩

التغريبة البلالية

هـروب من الموت تحت قصـف الطائرات الإسـرائيلية لبيروت في يوليو الأسـود، ومشـاركة في تهريب كتاب معارض لنظام الأسد في قلب دمشـق قبل سـنوات من انـدلاع الثورة السـورية، ومواجهة مع حاخاماـية على ضفـة نهر في ويلـز، وبحث مرير عن رفات شـيخ الثائرين عبد الله النديم في مقابر إسـطنبول، واحتجاز في مسـرح بـرودواي بصحبـة ربة منـزل أمريكية حتـى يعبر أوباما بسـلام، ودرس من يساري إسكوتلندي لأنصار مدرسة ندِّي فرصة يا جماعة، والاحتفاء بخمس كاميرات فلسـطينية مكسـورة فـي قلب نيويورك، وحـوارات ممتدة مع أتراك لا يحبون قائدهم الذي يحبه العرب رجب طيب أردوغان، ثم لقاء بأردوغان نفسـه بصحبة فلول نظام مبارك، وحكايات تغيظ من بلاد الإنجليز.

هذا بعض ما جرى عندما تركت الكنبة ومشيت في مناكبها..

بلال فضل



دار الشروق
www.shorouk.com


Exclusive
For
www.ibtesama.com
حصريات مارس 2013